طارق حنفي

بئر الرحمة

رواية

2021

المثقف
للنشر والتوزيع

بالتعاون
مـــــع

البحرينية المصرية
للنشر والتوزيع
B&E FOR PUBLISHING

❖ اسم العمل: بئر الرحمة (رواية).
❖ الكاتب: طارق حنفي محمود
❖ دققه وحرره: إسلام م. صديق.
❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنـــة.
❖ تصميم الغلاف: أنس أيمن.
❖ مستشار أدبي ونائب رئيس مجلس الإدارة: إنتصار ربيع عبد الحميد.
❖ رقم الإيداع: 2271 / 2021
❖ الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6797 –73 - 4

9 789776 797734

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي انتهاك سيعرض صاحبه
للمساءلة القانونية
هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط
ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها
إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر

-(للتواصل)-
002 01000147443
b.e.publishing.33@gmail.com
محمد حسين ميزار
رئيس مجلس الإدارة

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من
حيث الاراء والافكار والمعتقدات، وكونه
أصيل لم غير منقول، وأية خلافات قانونية
بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

رواية

بئر الرحمة

(الطبعة الثانية / منقحة)

الكاتب

طـــارق حنفي

المثقف للنشر والتوزيع

بالتعاون مع

الجيزة المصرية

إهداء

إلى قلوب بالخير عامرة لا ينقص منها عطاء، دافئة على الدوام لا ينال منها شتاء..

إلى كل من وقف بجوارنا لعلنا ننضج، ومن وقف في وجوهنا خوفا علينا من أن ننضج..

إلى كل تلك الأرواح التي جاءتنا لما علمت بالأمر، والتي تركتنا حين جاءها الأمر..

إلى تلك الأرواح الطيبة التي لا يلهيها الأمل، ولا يغرنها بالله الغرور..

إلى روح أمي الطاهرة..

أهدي كتابي

طارق حنفي

مقدمة

لماذا اكتسبَ الإنسانُ هذه المكانةَ العظيمة بين جميع المخلوقات؟

ربما جالَ بخاطر بعضنا هذا السؤالُ، الذي حاول العلماء والمفكرون والفلاسفة عبر التاريخ أن يجيبوا عليه، لكن لا أحد منهم قد أعطى إجابةً شافيةً وإلا لتوقفنا عن طرحه، لكنَّ الأكيد أنَّ معظمَنا يتعامل مع هذا الأمر كواحد من المسلمات.

قالوا: إن السبب هو امتلاك الإنسانِ للعقل والقدرة على الاختيار، لكن الجنَّ يمتلكون عقولًا وقدرةً على الاختيار هم أيضًا.

عادوا وقالوا: ربما هي الأمانة التي حملها الإنسانُ، ثم عادوا واختلفوا هم أنفسُهم في تفسير معنى الأمانة؛ هل هي العقل؟ أم القدرة على اكتساب العلوم والمعارف؟ أم القدرة على الاختيار؟ لكن الجن يمتلكون عقولا وقدرة على الاختيار هم أيضا.

لقد أخذوا يدورون داخلَ نفسِ الدائرةِ؛ دائرةٍ مركزُها العقلُ، ونصفُ قطرِها القدرةُ ومحيطُها الاختياراتُ، وفي كلِّ مرة يدورون فيها داخل دائرتهم يظهر لهم ذلك القاطعُ الذي يقطعها باستمرار، ألا وهو الجن الذي يملك بدوره العقل ويستطيع أن يختار مثله في ذلك مثل الإنسان.

ما لبثَ بعضُهم أن مسحَ الدائرةَ ليعيدَ رسمَها من جديدٍ بنصفِ قطرٍ جديدٍ فيظهر لهم القاطع من جديد... وهكذا

قالوا: هي القدرة على المنع والمنح، تلك القدرة التي لم يعطِها الله لأحد من مخلوقاته سوى الإنسان، فالإنسانُ هو من يمكن أن يطعمَ ويسقيَ المخلوقات الأخرى كالحيوانات مثلًا، هو من يستطيع بالعلم والمعرفة أن يلبي لباقي المخلوقات احتياجاتهم كالحاجة إلى الدفء والأمان والملبس، لكنهم اصطدموا بنفس الإنسان وهواها التي تتحكم في عطائه ومنعه، مما جعل البعض الآخر يقول: لو كان الأمر محصورًا في القدرة على المنح والمنع لاختار الله من أسبابه ما يشاء ليمنح ويمنع، كالملائكة مثلا، تلك المخلوقات التي طاعة الله بالنسبة لها هي علة وجودها والتي تحيا في نعيم الشعور بقدسية الله وخشيته، لقد كان من الممكن أن يكونوا رسل الله الذين يمنح الله ويمنع عن طريقهم.

إلى هنا قد يفكر شخص ما وهو يتمتم بينه وبين نفسه ساخرًا: هل من الممكن لرواية ما أن تجيب على هذا السؤال؟! هو بالطبع حرٌّ أن يفكر في ما يشاء، فهو في النهاية إنسان يملك العقل والقدرة على التفكير والاختيار.

وإلى هذا الشخص أقول: لقد دار بيني وبين نفسي هذا الكلام من قبل، وسخرت من الأمر كما سخرت أنت، لكنني بعد مرور لحظات عدت فقلت: دعنا لا نتعجل الأمر، لنقرأ ونرى.

طارق حنفي

البداية

هو لم يستطع النوم لدقيقة واحدة منذُ وضع جسده في الفراش قبل ساعتين، كعادته حينَ يطرقُ عقلَه سؤالٌ ما فيفتحُ لهُ البابَ يستقبلُهُ في ودٍّ، وهو يعلم أن السبيلَ الوحيدَ لإكرامِ هذا الضيفِ هو الوصول إلى الغايةِ من قدومه؛ ألا وهو المعرفة ولو بقدرٍ، فيحاول لملمةَ أفكارِه المبعثرةِ هنا وهناك على أملِ العثورِ على بداية الخيط؛ ذلك الرابط الذي يربط أفكاره برباطِ السماحِ والإذن، ليتسنى له ترتيبَها ترتيبًا يسمحُ له بإيجادِ نافذةٍ يدخلُ منها إلى عالمِ الأفكار، ثم يبعثرُها هناك مرةً أخرى، ويتركها ترتِّبُ نفسها بنفسها، وينفخُ فيها من روحِ خيالِه وكأنما يبثُّ فيها الحياةَ لتقومَ وتتحركَ وتعبِّرَ عن ذاتها، يرصدها عن قرب لعلّه يتعلّم عن حروفها ومنطقها؛ ليبدأَ في تلعثُمٍ أولى كلماته معها، يحاورها في ودٍّ لعلَّها تثقُ به، فتبوح له بمكنوناتها وتعطيه من حكمتها وفقهها، فيترجم عنها كلامَها ويصيغه في شكل إجاباتٍ تحمل ما تحملُ من المعاني والمعارف في طياتها.

قرر أخيرًا أن ينهضَ من فراشِه ويدلُفُ إلى غرفة مكتبه، لعلَّهُ يجد المدد والإلهام هناك حيث اعتاد الجلوسَ أمام شاشة الكمبيوتر يكتب خواطره.

لكنه وعلى غير العادة قد اكتفى هذه المرة بالجلوس خلف مكتبه، ينظر إلى الفراغ في محاولة أن يجد شيئًا هناك خلف اللا شيء، يجلس في صمت من دون أن تبدرَ منه أية حركةٍ وكأنه استحالَ تمثالًا من الحجر الأصم، ظل على تلك الحال من الصمت والثبات

حتى انطفأت شاشةُ الكمبيوتر أمامه، والتي لم يكنْ يتذكرُ أنه قد ضغط زرَ تشغيلها، فمد يدَه في آلية، وضغطَ على لوحة المفاتيح، فأنارت الشاشةُ مرة أخرى وأخرجته من شروده.

هبَّ واقفًا ثم تحرك صوب النافذة الوحيدة في غرفة مكتبه، تلك النافذة القديمة المشغولة كلُّها بـ(الأرابيسك)، شأنُها شأن جميع النوافذ في هذا الحي الأثري من أحياء القاهرة القديمة، وعندما أطلَّ برأسه خارجها اصطدمت عيناه بذلك المبنى القابع وحيدًا أمام بيته في صمت، مبنى قديم يتكون من غرفة واحدة، أربعة جدران عالية مبنية من الحجارة الكبيرة، وسقفها مصنوع من ألواح الخشب المغطاة بجزوع الشجر التي تعرشها، لها بابٌ من الحديد الثقيل المغلق دائمًا بقفل وسلسة حديدية، ومع ذلك المصباح الحديث شديد الإضاءة الموجود أعلى الباب، والذي لا يتماشَى مع قدم المبنى كان يستطيع أن يقرأ من مكانه ما نُحِت فوق الباب، ولعلها المرة الأولى التي ينتبه فيها إلى ذلك النقش هناك (بئر الرحمة) تمتم بينه وبين نفسه: يا له من اسم!

نعم هو يتذكر القليل من طفولته حين كان والده يحكي الحكايات، كان يحكي له عن وجود بئر أثري داخل ذلك المبنى، بئر قديم جدًا.

وفي قوة عاد السؤال يدق هذه المرة على جدران عقله من الداخل فيهز رأسه كله، وكأنه يذكره بوجوده، فعاد هو مسرعًا ليجلسَ

على الكرسي أمام شاشة الكمبيوتر، وقرر ولأول مرة منذ أن ألحَّ ذلك السؤالُ عليه أن يكتب ما يجول في عقله، كان يتمتم بصوت خافت يكاد لا يصل لأذنيه:

- نعم، لماذا اكتسب الإنسان تلك الأهمية الكبيرة بين المخلوقات جميعًا؟!

تنهد، ثم بدأ صوته يعلو بعد أن كتب السؤال الذي يؤرق سهاده، وهو يقول:

- ما حقيقة الاختيار؟ وما معناه؟ هناك الملائكة وهناك الشيطان، وهناك الإنس والجان، كما أن هناك السماوات والأرض اللتين قالتا أتينا طائعين، لقد اختارتا الطاعة سبيلًا.

زفر في قوة قبل أن يقول:

- ما الفرق بين طاعة الملائكة وطاعة السماوات والأرض؟

علا صوته أكثر وهو يحدث نفسه ويقول:

- لماذا هذا السؤال الصعب الآن؟ وهو اليوم الذي أرسل فيه مقالي الأسبوعي إلى الجريدة.

كان مستغرقًا في تفكيره تمامًا حين وجد نفسه يعود ليفكر في بئر الرحمة مرة أخرى رغمًا عنه، توقف عن التفكير لحظات وهو يتمتم:

- يا له من اسم!

وفجأة هجم عليه سؤال جديد يطرق بدوره باب عقله، يطرقه في قوة يكاد معها أن يحطمه فيلقي صاحبه في ريح الفكر العاصف دون باب يسده ويستريح؛ هل لو كان للأشياء حرية الاختيار كانت ستعطي الكافر كما تعطي المؤمن؟ لو كان للماء مثلًا حرية الاختيار- وهو العارف بقدرة الله وسلطانه وجبروته - هل كان سيذهب للكفار يسقيهم وينبت زرعهم؟

وجد نفسه يقول في هدوء عجيب:

- أهي رحمة الله التي لم تجعل المنح والمنع في يد الأشياء، بل جعلتهم مجرد أدوات لها حتى لا تستطيع أن تفرق بين مؤمن وكافر، فلا تمنح أو تمنع من تلقاء نفسها؟!

ومن بابه المفتوح على مصراعيه وبدون استئذان دلف إلى عقله سؤال آخر: هل نقطة الماء عندما تنزل من السماء مطرا تعلم ما عليها فعله أم أن أمرها يأتيها في حينه، وهل تدرك المكان الذي سوف تستقر فيه؟ ومَن عليها أن تنفع من النبات والزرع والبشر؟ أم هو تطويع وطاعة تخدم أقدار الله؟

وفجأة، رأى وكأنما التفاصيل تتلاشى في سرعة من حوله لتتشكل في نعومة تفاصيل جديدة، ما تلبث أن تتغير وتتلاشى بدورها ليتشكل غيرها وهو ينظر مشدوها، يتلفت حوله في حيرة وهو يحاول

أن يدرك ما يحدث، كان لا يزال متمسكًا بمنطقه؛ يطلب منه أن ينقذَه ويخبرَه عما يحدث، ثم أخذت الصورة تتسارع، والمشاهد من حوله تتغير وتتوالى ، أبنية تقوم في ثانية، ثم تتلاشى وتتكون غيرها، حتى وصل المشهد إلى طريقٍ غير ممهدة يمتد على جانبيها صحراءُ تحتلُّ الأفقَ، ثم اختفتْ الطريقُ وبقي المشهد عبارة عن صحراءَ وجبالٍ، وهنا خمدَ عقله فلم يعدْ يطرح الأسئلة، بل أصبح مجرد مشاهدٍ لما يحدث من حوله.

لقد بدا وكأن وعيه قد انتُزِعَ منه، قبل أن يُلقى به في مجرى الزمن ليسافر بعيدًا في الماضي السحيق، في زمان كان كلُّ ما يشغل بال البشر الحصول على الحاجات الأساسية من شراب وطعام، ثم يأتي المسكن والملبس، ذلك الزمان حيث كان الخوف من الحيوانات والوحوش هو ما يسيطر على تفكيرهم، في زمان كان العثور على مصدر للماء هو غاية الغايات، في ذلك الزمان كان الوطن حيث توجد قطرة الماء.

وهناك حيث كان لا يزال عقلُه يشاهد ما يحدث، وجد نفسه يقف بوعيه على قمة جبل عالٍ، والمطر ينهال من السماء في سرعة وقوة؛ ليكوِّن سيلًا عارمًا يتدفق عبر المجاري المنحوتة في الجبل والتي تكونت عبر السنين، وجد نفسه يهبِطُ مع الماء من قمة الجبل إلى أسفله في سرعة متزايدة، وكأنَّ وعيه قد تحوَّل إلى نقطة ماء تهبط مسرعة بدورها مع باقي الماء، وتدفق الماء من الجبل وغمر تلك

البقعةَ من الأرض، ليجد نفسه ينفذ داخل الأرض من خلال شق أرضي قرب الجبل حيث نفذ جزء كبير من ماء المطر بالفعل.. كان يتحرك في بطء مع الماء في جوف الأرض، حتى وصل إلى خزان جوفي، والذي كان على وشك أن يملأَه الماء.

وبدون تدخل منه وجد وعيَّه يخرج إلى سطح الأرض، ورأى ذلك الجبل العالي الذي يأخذ شكل نصف الدائرة يحتل المشهد أمامه، ثم سمع من خلفه أصواتًا أشبه بالهمهمات، نظر خلفه ليجد نفرًا من البشر، يجرون أرجلهم جرًّا؛ ليسيروا فوق تبه رملية عالية، شعثًا غبرًا يرتدون بعض الملابس التي بالكاد تغطي عوراتهم، يبدو عليهم الإعياءُ والتعب.

وجد نفسَه يسير في نعومة كأنما يطفو فوق الأرض دون أن يلمسها بالفعل، اقترب منهم أكثر، كانوا يصدرون أصواتًا غريبة ويحركون أيديهم إلى أعلى وإلى أسفل كأنهم يتحدثون مع بعضهم البعض ولكن بلغة غريبة. في البداية لم يفهم مما يقولون حرفًا واحدًا، ولكن حين بدأت إحدى النساء تتكلم وجد نفسه يفهم حديثها في سهولة، سمعها تقول في تعب وبصوت يملؤه اليأس:

- إنه على وشك الموت!

كانت توجه كلامها إلى رجل ممتلئ الجسد، يسير أمامهم كما لو كان الزعيم، تتكلم وهي تومئ برأسها إلى طفل تمسكه في يدها،

طفل صغير يبدو عليه الإعياء الشديد، والجفاف يشقق شفتيه من شدة العطش، حاله حال الجميع من حوله، وكانت تمسك في يدها الأخرى تمثالًا صغيرًا له هيئة عجيبة، تقبض عليه في حرص يكاد يحاكي الحرص الذي تمسك به صغيرها، نفس شكل التمثال الذي يتدلى من حبل حول رقبة الطفل، التفت إليها الزعيم وهو يقول بصوت يشبه الزمجرة:

- أنت تعلمين، لقد حاولت مقاومتهم، ولكن من يستطيع أن يردع هؤلاء القتلة؟!

ثم قال في حدةٍ مفاجئة وبصوت عالٍ:

- ألم تري ما حدث؟ هم لم يكتفوا بقتل معظم أفراد القبيلة بل كانوا يأكلون لحومهم.

صمت لحظة قبل أن يستكمل كلامه في حزن عميق:

- لقد قتلوهم جميعًا حتى الأطفال والنساء. إنهم وحوش.

وهنا تكلم أحد الرجال من خلفه والذي كان مع نحافة جسده يشبه الهيكل العظمي:

- لقد فعلت الصواب حين فررت بنا ليلا، لقد بدوت لي كبطل حقيقي وأنت تهاجم اثنين من حراسهم وتقتلهم ثم تحررنا من أيديهم، لم

يكن أبدًا في مقدورك أن تحرر الجميع، لو لم تنقذنا لأصبحنا أيضا لهم عبيدا ولآلهتهم قرابين.

ثم خفض صوته وهو يقول تعب:

- لكنه العطش هو ما يكاد يقتلنا الآن.

ثم حدث أمر عجيب، لقد أفلتت يد الطفل الممسكة بيد المرأة، وأخذ يتدحرج من أعلى التبه الرملية هبوطًا في اتجاه الأرض، والغريب أنه حتى بعد أن لامس جسده الأرض لم يتوقف عن التدحرج، كما أن حركة جسده لم تقل سرعتها، وأخيرا استقر على مسافة كبيرة من التبه نفسها، والمرأة تصرخ وتقول:

- ابني "شيبالا".

ولم تشعر بنفسها وهي تلقي بجسدها من خلفه في محاولة منها أن تمسك به، وهبطت هي الأخرى ولكن قريبًا من التبة، قامت في سرعة وخفة لا تتناسب والتعب البادي عليها وجرت في اتجاه ابنها، وحين وصلت إليه وجدته يقف سليمًا معافًى وهو ينظر إلى الأرض أسفل قدميه، ووقفت الأم مشدوهة، فهناك أسفل قدمي "شيبالا" تماما كان يتسرب من الأرض الماء، والذي لم يلبث أن انفجر إلى أعلى، حيث فاض من الخزان الجوفي.

جرى الجميع في همة ونشاط لا تتناسب وتعبهم، وفي سعادة لا تناسب شحوب وجوههم، كان الجميع ينهل من الماء نهلًا وهم يضحكون ويمرحون، ثم نظرت الأم إلى طفلها الصغير وهي تقول في فخر:

- أيها المبارك "شيبالا".

ثم قال الزعيم بصوت قوي، وهو ينظر إلى التمثال الذي ما زالت تمسك به الأم:

- هي رحمة الإله (منون).

(١)

الشعور بالملل هو ما كان يسيطر عليها في تلك اللحظة، وهي تجلس مع أقرانها من البنات والصبية داخل بهو فسيح، لم يساعدها كثيرًا ذلك البساط الجميل المصنوع بمهارة من ألياف الشجر، والمزركش بعدد من الألوان المبهجة وهم يفترشونه، هي الوحيدة من بين البنات والصبية التي كانت تتململ في جلستها، والجميع من حولها يجلسُ في صمت تام، يستمعون في تركيز إلى امرأة عجوز تحكي لهم قصة المبارك "شيبالا" والإله (منون).

أما العجوز نفسها فكانت تجلس على حجر مَنحوت بعناية على شكل كرسي، وعن يمينها ينتصب في شموخ أربعةُ تماثيلَ مصنوعة بمهارة من حجر صلد عجيب، التمثال الأول وهو الأكبر حجما بينهم كان على هيئة إنسان ضخم حليق الرأس مفتول العضلات وسيم الوجه، أما الثلاثة الآخرون فكانوا متساوين في الحجم، ولكن مع بعض الاختلافات في الهيئة، تشابهت رؤوسهم التي نُحِتَتْ على شكل رأسِ نسر، لكنَّ أحدهم كان يحمل في يده شيئا يشبه الفأس، والآخر يحمل ما يشبه المطرقة، أما الثالث فكان يحمل في يده ما يشبه الرمح.

لم تستطع المقاومة أكثر من ذلك، وهي تزفر بقوة، ثم تلتفت إلى الصبي الذي يجلس بجوارها وهي تقول بصوت خافت:

- لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك، كم مرة يجب علينا أنا نستمع إلى تلك القصة قبل أن نكبر؟!

التفت إليها الصبي بدوره، وفي عينيه نظرة هلع قبل أن يضع إصبعه فوق فمه ونظرة الهلع في عينيه تتحول إلى الرجاء وهو يقول بصوت خافت:

- صه، توقفي عن الكلام يا "لابا"، أرجوكِ.

مالت عليه برأسها وهي تقول في همس:

- أنت تسمع هذه القصة هنا فقط، يا "كالاب"، تسمعها مرة واحدة كلَّ أسبوع بينما أنا أسمعها كلَّ يوم وفي كلِّ مكان.

- اعلم، فهذه العجوز "سناح" هي جدتك، والمبارك "شيبالا" نفسه جدك الأكبر.

ثم أضاف وهو يزفر في ضيق واضح:

- و"كشح" زعيم القبيلة هو أبوكِ.

وهنا التفتت إليهما العجوز "سناح" وهي ترمقهم بنظرة يطل منها الزجر، فأخرستهما تماما قبل أن تكمل كلامها وتقول:

- ومن يومِها والإله (منون) هو إلهُ الزراعة، يشاركُه الحكم وبنفس درجة الأهمية كلٌّ من الإله (فمنان) إله البناء، والإله (شمنان) إله الحرب، وهم يلتفون في ديمومة أبدية حول الإله الأكبر (زولا).

قالتها وهي تشير في خشوع إلى التماثيل الأربعة الواقفة بجوارها، فقال أحد الصبية في اندفاع:

- أبي أخبرني أن شكل الإله (منون) الأصلي لم يكن هكذا، لقد كان رأسه رأس ذئب.

تجرأ صبي آخر على الكلام، فقال:

- إنَّ الإله (منون) كان بمفرده، ولم يكن معه آلهة آخرون، و..

وهنا قاطعتهم "سناح" في سرعة وغضب وهي تقول بصوت حاد:

- نعم، نعم.. لقد تغير شكله بعدها، ثم اجتمعوا جميعًا هنا.

ثم أضافت:

- لقد انتهت الصلاة الآن، أريد من كلِّ واحد منكم أن يسجد في خشوع ويقبل قدم الإله الأكبر (زولا) قبل أن يغادر المعبد.

كان الأطفال يخرجون في سرعة وفرحة عارمة وهم يجرون هنا وهناك، وكأنهم تحرروا أخيرا من مائة عام خلف القضبان، لكن "سناح" استوقفت "لابا"، وهي ترفع كف يدها قبل أن تشير لها بإصبعها لكي تقترب منها، وحين هم "كالاب" أن يذهب معها أشارت إليه بيدها أن يتوقف وهي تقول:

- "لابا" فقط.

توجهت "لابا" إليها وهي تنظر إلى الأرض، وقد كان ما توقعته، فقد نهتها جدتها عن الكلام داخل المعبد مرة أخرى حتى لا تغضب الآلهة منها، لكنها لم تلقِ بالًا لكلام جدتها وهي تسألها فجأة:

- هل من الممكن أن يتغير شكل الإله؟ ومن يحدد شكله في الأساس؟ وكيف تأتي الآلهة؟

ارتبكت الجدة وهي لا تدري ماذا تقول لها.. وبعد فترة من الارتباك والصمت استجمعت أمرها وهي تقول:

- أنت لا زلت صغيرة على هذه الأسئلة، كلّ ما أريده منك هو أن تكتسبي رضا الآلهة.

كانت "سناح" تنظر إلى "كالاب" نظرة ريبة وهو يغادر المعبد برفقة "لابا".

مع أن "لابا" ابنة زعيم القرية، إلا أنها فتاة بسيطة مرحة مليئة بالطاقة والحيوية، يشع من عينيها الذكاءُ، وتتحدث بمهارةٍ وثقةٍ تبدو معهما أكبرَ من سنها الذي لم يتعدَّ أربعة عشر عامًا، حتى أسئلتها كانت تثير حيرة مَن حولها، الكبير منهم قبل الصغير، كمْ كثير من الأسئلة التي كانت تجعل أباها وأمها ومعهما جدتها يجيبونها جميعا بالإجابة نفسها؛ بأن عليها ألا تسأل مثل هذه الأسئلة حتى لا تغضب الآلهة عليها.

وعلى النقيض تماما، فإن فقدان "كالاب" لأبيه وهو ما زال في المهد، ثم زواج أمه وهو طفل صغير، وتركها إياه ليقتات على الفتات من هنا وهناك، قد وضع بصمته عليه، فقد كان خجولًا قليل الثقة بالنفس إلا من تلك الأوقات التي كان يقضيها برفقة "لابا"، هي الوحيدة التي كان يتصرف معها بحرية وثقة.

كانا يقضيان معظم اليوم معًا، حتى أنهما في بعض الأحيان يقضيان النهار كله وجزءًا من الليل، لا يكادان يفترقان إلا مع النوم أو حين يرسل والد "لابا" أحدهم ليأتيه بها رغما عنها، ينضم إليهما أحيانا "سعدون"، وهو ابن كبير الطهاة المسؤول الأول عن طعام زعيم القبيلة وأسرته. يجوبون الأماكن في محاولة لاستكشاف المجهول، يحركهم الشغف الذي يملأ قلوبهم؛ ليعرفوا أكثر عن الحياة من حولهم.

وفي إحدى المرات التي كانت تجمع ثلاثتَهم معًا، وهم يقفون بالقرب من الجبل يضحكون ويلعبون، لاحظت "لابا" أن "كالاب" ينظر إلى الكهف في أعلى الجبل نظرة خوف، فقالت في شرود وبصوت خافت:

- إنه كما تعلم كهف قدس الأقداس، حيث يوجد خارجه أكبر تمثال للإله (زولا)، ومن خلفه تستقر تماثيل الآلهة؛ (منون) و(فمنان) و(شمنان).

نظر ثلاثتهم إلى تمثال (زولا) المهيب وهو يقف شامخا هناك، و"لابا" تكمل قائلة:

- لقد أخبرني أبي أنه من المحرم على الجميع الدخول إلى الكهف لأي سبب كان.

صمتت لحظات قبل أن تضيف:

- إلا الكهنة بالطبع.

سألها "كالاب" في حذر:

- لماذا يتركونه دون حراسة؟

- بالفعل، أنا لم أرَ أي حراسٍ يقفون على بابه من قبل.

وهنا قال "سعدون" في استنكار وهو يأخذ نفسه في سرعة:

- حراس! ومن يجرؤ على الاقتراب منه؟!

ثم تطلع إلى باب الكهف وهو يكمل في رهبة:

- هناك يتم تقديم القرابين للآلهة، والتي تضمن لأهل القرية استمرار وجود الماء في البئر، و تضمن أيضا استمرار حماية الآلهة لهم.

التفت إليهما "كالاب"، فتوقفا عن الكلام وهما ينظران إلى وجهه في حيرة، لقد كان وجهه شاحبًا، ويطل من عينيه خوفٌ حقيقي،

خوف شديد لا يدري له سببًا كلما وقع بصره على كهف قدس الأقداس.

*****

في ليلة من ليالي القرية التي اجتمع لها الهدوء مع صفاء السماء، وقد غاب عنها قمرُها ليتركَ لقبَّةِ السماء حرية التزيُّن بنجومها والتباهي بها، كانت النجوم نفسها ترسم لوحات من النقاط المضيئة، لوحاتٍ تصنعها أعين المتطلعين إليها، كلٌّ بحسب ما تترجمه له عيناه عن خياله، فهذا قد يرسم من النجوم شكل جبل صغير، أما هذا فقد يراها ترسم دبا ضخما.

كانت "لابا" تجلس بجوار "كالاب" على نفس الصخرة التي يجب أن تسمى باسميهما من كثرة جلوسهما عليها، تتطلع إلى ناحية من السماء وهي تتخيل النجوم وقد رسمت شكلًا ما، ثم تطلب من "كالاب" أن ينظر إلى نفس الجزء ويخبرها ماذا يرى بدوره.

لم يبدُ عليه أنه قد سمعها وهو يجلس صامتًا دون حراك، كأنه استحال تمثالًا آخر يُضَافُ إلى التماثيل عند الكهف هناك، لكنه تمثالٌ لصبي شارد الذهن حزينٍ، خمنتْ أنه ربما يفكر في أبيه الذي مات، وهو لا يزال طفلًا صغيرًا، ولما لم يجِبها لم تُرِد أن تحرجه وتركته لصمته، ومع طول الصمت والحزن البادي في عينيه، لم تجد هي بدًا

إلا أن تكسر حاجز الصمت وتجعله يتكلم، ويعبر عما بداخله، لعله يخرج من حالته تلك، نظرت إليه وهي تسأله في رفق:

- هل تفكر في أبيك؟

التفت إليها، ودون أن ينبس بكلمة واحدة أومأ برأسه، ثم عاد الصمت يغلف المكان من حولهما.

من الغريب حقا أن تشعر "لابا" بما يحزنه، لكن الأغرب أن يتعامل "كالاب" مع الأمر بتلك البساطة؛ وكأنه من الطبيعي أن تشعر هي به، وأن تعرف ما يسعده ويحزنه دون أن يتكلم.

لم تستسلم وقررت أخيرا أن تخرجه من حزنه فسألته فجأة في حماس:

- هل تريد أن ترى البئر من الداخل؟

نجحت محاولتها و"كالاب" يلتفت إليها ويقول في بطء:

- أنا لم أرَها من الداخل من قبل.

نظرت إليه في استغراب، وقبل أن تقول هي أي شيء تعليقًا على كلامه، استكمل هو في استنكار:

- أنا لست ابن زعيم القرية ليسمحوا لي بذلك.

قامت "لابا" فجأة وهي تقول له في حماس:

- هيا بنا إذًا.

جرتْ، وجرى خلفها، وما إن وصلا إلى البئر حتى استوقفهما أحدهم، وهو يقول:

- مرحبا "لابا"، كيف حالك وحال الزعيم "كشح"؟

نظر "كالاب" إلى المكان في شغف، فقد كانت هي المرة الأولى التي يقترب فيها بهذا القدر من البئر، فهو ممنوع من أن يأتي إلى هنا شأنه في ذلك شأن سكان القرية جميعا، ولو أنه أتى بمفرده وليس مع "لابا" لما سَمح له الحارس بالاقتراب من الأساس.

كان ينظر حوله في دهشة وهو يتفحص المكان، لقد صنعوا سورًا دائريًا من الحجارة الثقيلة الموضوعة بعضها فوق بعض لتحيط بالبئر من كلِّ صوب، وكان السور من الارتفاع بحيث يخفي البئر تمامًا، وهناك باب واحد ثقيل مصنوع من سيقان الشجر المربوطة بحبال قوية مصنوعة من قشر الشجر نفسه، ويقف من حولها الحراس يحرسونها على الدوام، حراس بالليل، وآخرون بالنهار، لا يسمحون لأي أحد بالاقتراب منها إلا السُقاة الذين يأتون ويملؤون الجرار بالماء؛ ليقوموا بتوزيعه على أهل القرية.

أفاق من تفقده للمكان على صوت "لابا" وهي تجيب الحارس وتقول:

- أنا بخير وكذلك أبي، شكرا لك.

ثم سألت الحارس:

- ولكن ما اسمك، يا سيدي؟

أجابها الحارس في ود:

- اسمي "شابان"، كبير الحرس.

- أنا "لابا" كما تعلم، وهذا "كالاب".

ساد الصمت بعدها، و"لابا" تنظر إلى الأرض، وقد بدا عليها أنها تريد شيئًا ما، أدرك "شابان" ما يدور في خلدها فابتسم وهو يقول:

- ماذا هناك؟ هل تريدين أن تري البئر من الداخل؟

أومأت برأسها، ثم نظرت إليه قبل أن تلتفت إلى "كالاب" وكأنها تستأذن الحارس أن يسمح له هو الآخر، فقال:

- نعم، فليأتِ هو أيضا.

ابتسما وهما يتجهان إلى البئر والحارس يتقدمهما ليفتح ذلك الباب الثقيل، وأطل "كالاب" برأسه داخل البئر ينظر في دهشة إلى تلك الساقية الكبيرة وذلك الحيوان الضخم الحالك السواد المتصل بها، اندهش عندما رأى تلك العصابة على عينيه، وتساءل في نفسه عن

سببها، لكنه عاد ينتبه إلى ذلك الحيوان الذي يتحرك باستمرار في دائرة حول البئر، وكلما تحرك كانت الساقية تدور حول نفسها.

تطلع إلى تفاصيل الساقية، لقد كانت عبارة عن دائرة تنتصب رأسيا مصنوعة من الخشب، يتدلى منها ما يشبه الأواني المصنوعة من الحجارة، وعندما يدور ذلك الحيوان المتصل بها تدور هي حول نفسها، فتهبط الأواني داخل البئر تباعا، عندما يمتلئ أحدها بالماء يعلو ويهبط غيره إلى داخل البئر وهكذا، بحيث أن تلك الأواني لا تجد لها بدًا مع ذلك النظام الديناميكي إلا أن تفرغ ماءها، فيستقبلونه في قناطر عبارة عن نصف شجرة مجوفة، محفور لها، ومثبتة في الأرض بميل أفقي يسمح للماء أن يجري فيها، ليتم توزيعه حسب الحاجة.

نظام بديع شد انتباه "كالاب" وهو يحاول أن يفهمه، لكنه لم يلبث أن راودته مشاعر غريبة فتوقف عن التفكير في الساقية ونظامها، خليط من السعادة والرهبة التي لم يدرِ لها سببا، إلا أنه ما لبث أن عاد يتطلع إلى البئر التي يراها لأول مرة من الداخل، وأخيرا خرج الاثنان وعلى وجههما تبدو السعادة واضحة، فابتسم لهما "شابان"، وقد سره أن يراهما فرحين هكذا، وقال:

- أتعلمان ما هي أكبر ميزة هنا في القرية؟

انتبها إليه وهو يكمل:

- أن القرية مخفية تماما عن أعين الآخرين، فهي تقع عند سفح الجبل الذي يمتد في انحناءة طبيعية ليحيط بها من ثلاث جهات...

كان يشير إلى الجبل وهو يلوح بيديه ليشرح لهما معنى كلامه:

- ومن الجهة الرابعة هناك تلك التبه الرملية العالية والتي تدحرج من فوقها المبارك "شيبالا" ليستقر على الأرض تمامًا فوق مكان البئر.

نظر إليه "كالاب" وهو يسأله في حذر:

- لكن لماذا توجد تلك المباني العالية فوق الجبل؟!

كان يشير "كالاب" إليها بيده قبل أن يضيف:

- خصوصًا ذلك المبنى الدائري المرتفع عن كلِّ ما حوله، والذي تخرج من قمته النارُ عالية في كلِّ ليلة!

قالت "لابا" في سرعة:

- هي مبانٍ حديثة لم يمر عليها سوى بضع سنوات.

ثم نظرت إلى "شابان" وهو تقول:

- أليس كذلك، يا سيدي؟

كان "شابان" ينظر إلى الأبنية الثلاثة الكبيرة البادية فوق الجبل، ثم التفت بعينيه لينظر إلى المبنى الدائري العالي، وصمت وطال صمته، كأنما

يحاول أن يزن الكلمات في عقله قبل أن يلفظها فمه، أو ربما يتمنى لو ينسى "كالاب" أسئلته تلك؛ كي لا يضطر إلى الإجابة عليها.

قطعت "لابا" حبل أفكاره وهي تقول في اندفاع:

- إن أبي يمنعنا من أن نذهب إلى هناك، ويقول: إنه مكان خاصٌّ بالكبار فقط، لكني أعرف أنَّ الغرباء يأتون إلى تلك الأبنية ويقيمون فيها، وإن كنت لا أعرف ماذا يفعلون أو أين يذهبون بعدها.

نظر "شابان" إليها نظرة طويلة قبل أن يقول في بطء:

- نعم، المبنى الدائري الذي ترتفع من قمته النار ليلا هو دليل يهدي التائه في الصحراء ليلًا؛ ليستدل به ويأتي إليه، ثم يستقبله وفدٌ من الكهنة، فيطعمونه ويسقونه، بل يجعلونه يبيت في أحد تلك المباني الثلاث.

صمت بعدها وطأطأ رأسه وهو يقول بصوت خافت:

- وهذا يكفي، فأنا لا أعلم ماذا يحدث بعدها.

ما لبث أن رفع رأسه وهو يستعيد ابتسامته الودود مرة أخرى ويقول:

- لا يناديني أحدكما بسيدي مرة أخرى، "شابان" فقط.. اتفقنا؟

أومأ كلاهما برأسه في سعادة واضحة.

* * * *

(٢)

نظر "كالاب" إلى "شابان" وهو يقول في اندفاع واضح:

- هل جاء إلينا غرباء من قبل؟

ثم استدرك:

- أعني، ليس كما يأتي الغرباء إلى هناك في المباني الثلاثة، ولكن هنا بيننا، هل عاش بيننا غرباء من قبل؟

صمت "شابان" ولم يُجِبْه على الفور، وإن بدا عليه التردد، لكنه قرر في النهاية أن يتكلم، فقال:

- لقد رأيتهم مرتين عن نفسي.

ثم صمت مرة أخرى وهو يزن الكلمات في رأسه قبل أن يقول:

- لكن، وكما أخبرتني جدتي عندما كنت طفلا صغيرا، أنه منذ ثلاثمائة عام، وكان ذلك بعد أن وجد المبارك "شيبالا" البئر بنحو خمسين عامًا، حدث أن جاء جيش من الغزاة يريدون أن يستولوا على البئر والقرية، في البداية دخلوا على أهل القرية مدعين الودَّ والسلام، حيث اقترح كبيرهم على زعيم القرية...

ثم نظر إلى "لابا" وابتسم قبل أن يستكمل كلامه:

- أعني جدك الأكبر "شيبالا"، أن يعيشوا جميعا معًا في سلام داخل القرية، متعللًا في ذلك بأنهم نفرٌ قليل مثلهم في ذلك مثل أهل القرية، كما اقترح عليه أن يتزاوجوا من بعضهم البعض وأن تختلط الأنساب، وبالطبع سوف تصبح البئر ملكا للجميع، لكن المبارك "شيبالا" كان حكيما بالفعل حين سأله فجأة: وهل ستعبد إلهنا أم إلهك؟. فأجابه بأنهم يجب أن يعبدوا إلهه هو معللا ذلك بأن إلهه إله حرب مخيف. وهنا وقف "شيبالا" وهو يقول بحكمته المعهودة: ربما يمكننا أن نعيش جميعا في سلام، على أن تعبد كلُّ فرقة منا إلهها.

توقف "شابان" قليلا ريثما يأخذ أنفاسه، ثم أكمل:

- لكن كبيرهم كان يثق كلَّ الثقة في قوة إلهه مما جعله يرفض ما يقوله المبارك، بل لقد قام بتهديده وهو يطلب منه أن يخضع له، ومعه أهل القرية، وأن يعبدوا إلهه وإلا سوف يقتلهم جميعا.

قالت "لابا" في سرعة:

- وماذا كان رد جدي عليه؟

نظر إليها "شابان" نظرة غريبة، وبدا شكله عجيبًا بحق مع تلك اللمعة البادية في عينيه وهو يقول في رهبة:

- أخبرتني جدتي أن الإله (زولا) بنفسه كان يهمس إلى المبارك "شيبالا" بالكلمات في هذه اللحظة...

فغرت "لابا" فاها، وكذلك فعل "كالاب"، و"شابان" يكمل:

- لقد رفض المبارك "شيبالا" كلامه، ثم خيره ما بين أن يعبدوا الإله (زولا) أو يرحلوا في الحال.

لكن "لابا" أسرعت تنفض الدهشة عنها وهي تقول:

- وماذا كان اختيار كبيرهم؟

- لقد اختار اختيارًا ثالثًا، اختار الحرب على أمل أن ينتصروا فيها، ويقوموا بطردنا نحن، ومن ثم يستولي هو وقومه على البئر والقرية، ويعبدون إلههم بحريتهم هنا، لكننا انتصرنا وقتلناهم جميعا، ثم جاء الأمر إلى "شيبالا" بأنهم لابد أن يدفنوا إله الحرب ذلك عميقا في الأرض.. أذكر ما أخبرني به جدي حينها، لقد أخبرني بأنه كان تمثالًا لإله أسودَ مخيفٍ.

ضاقت عينا "كالاب" وهو يهمهم علامة الفهم، ثم قال:

- وعندها ظهرت الحاجة إلى أن يكون لنا إله للحرب، فكان الإله (شمنان)، أليس كذلك؟

نظر إليه "شابان" نظرة إعجاب، وهو يقول والابتسامة تعلو وجهه:

- هو كذلك، مع بعض التفاصيل، حيث تكوَّن فيما بعد المجلس الأكبر للآلهة كما ظهرت الحاجة إلى وجود التشريعات والقوانين.

ثم نظر إليهما وهو يقول بصوت ذي نبرة خاصة مما زاد كلامه غموضا:

- وفي الآونة الأخيرة، جاءنا الغرباء مرتين...

انتبها إليه، وهو يكمل قائلا بنفس النبرة الخاصة:

- المرة الأولى كانت منذ أربعة عشر عامًا، حين هاجمتنا قبيلة من الغزاة ومعهم جيشهم العرمرم، كان معهم إله الحرب الخاص بهم، تمثال لأسد قوي منحوت بمهارة من صخر أحمر لم أرَ مثله من قبل، لقد كان إلههم المخيف يساعدهم وينصرهم على كلِّ أعدائهم، لكننا وقفنا أمامهم وقاتلناهم في شجاعة، وهزمناهم.

برقت عينا "شابان" بضوء حقيقي وهو يكمل ويقول:

- وقتلنا زعيمهم.

وصمت بعدها، لكنه فجأة التفتَّ إلى "كالاب" في سرعة، ونظر إليه في حزن، وهو يقول:

- هو نفس اليوم الذي قُتِلَ فيه أبوك.

شهق "كالاب" وهو ينظر إلى "شابان" نظرة دهشة، وفغرت "لابا" فاها، لقد كانت هذه المرة الأولى التي يعرف فيها "كالاب" كيف مات أبوه، لكن "شابان" لم يمهله الفرصة ليتكلم وهو يقول في سرعة:

- لقد كنت أعرف أباك جيدًا.

ساد الصمت المكان بعد جملة "شابان"، لكن "لابا" قطعت حبل الصمت وهي تسأل في حماس مفاجيء:

- وماذا حدث بعدها؟

- عرضنا عليهم أن يعيشوا معنا عبيدًا لنا، أو أن يرحلوا دون طعام أو شراب أو سلاح، فاختاروا الرحيل.

جاء الدور على "كالاب" ليسأله:

- والمرة الثانية!

- كانت منذ عشرة أعوام، حين دخل علينا هؤلاء القوم بملابسهم البيضاء، كانوا نفرا قليلا، جاءوا بصحبة رجل يقولون: إنه نبي يأتيه الوحي من السماء.

كانا ينظران إليه في حيرة لكن أحدهما لم يتفوه بكلمة واحدة وهو يكمل:

- لقد دعونا إلى أن نترك عبادة هذه التماثيل - يقصدون آلهتنا - التي لا تنفع ولا تضر، نتركها ونعبد إلهًا واحدًا هو خالق السماء والأرض وخالق كلِّ شيء.

سأله "كالاب":

- وماذا فعل معهم الكهنة؟

ابتسم "شابان" لفطنته ثم قال:

- لقد آذوهم حتى كادوا أن يقتلوهم، فعرض ذلك النفر على زعيم القرية أن يتركهم ليعملوا ويعيشوا بينهم، إلا أن زعيم القرية...

ثم نظر إلى "لابا" وهو يقول:

- أبوك، السيد "كشح"، رفض تلك الفكرة، ثم أمر الكهنة أن يتركوهم يذهبون إلى حال سبيلهم.

وهنا قالت "لابا" في حيرة:

- من الذي يختار شكل الإله؟ ولماذا يغيرون شكله؟

وهنا قال "كالاب":

- بل السؤال الأهم، من الذي يحدد صفات الإله؟ وكم عدد تلك الآلهة؟ هناك إله حرب وهنا إله ماء ونماء!

ابتسم "شابان" لفطنتهما وهما في هذه السن الصغيرة؛ لقد كانت تجوب رأسه على مر السنين عشرات الأسئلة المشابهة لأسئلتهما؛ مما جعله ينظر إليهما ثم يقول:

- لقد بحثت في هذا الموضوع كثيرا، حتى أنني سألت كبير الكهنة "عرعر" نفسه، وذلك حين كنا مقربين في فترة الشباب.

ابتسم "شابان" رغمًا عنه، وهو يكمل ويقول:

- لقد كان ذلك منذ زمن بعيد بالطبع، المهم أنه أجابني أن أباه والذي كان كبير الكهنة آنذاك قد أخبره بأن روح كبير الآلهة قد ظهرت لجده الأكبر تخبره بأنها اختارته ليكون الكاهن الأول.

كانا ينظران إليه في ذهول و"لابا" تردد وتقول:

- روح الإله!

- نعم، يا "لابا"، فكما أخبرني "عرعر"؛ لقد كان الكاهن الأول يجلس في أعلى الجبل بالقرب من الكهف حين حل عليه التعب فنام مكانه، وهنا ظهرت له روح الإله وهو بين النوم واليقظة، وأخبرته أن الإله (زولا) قد اختاره ليكون كاهنه الأول في هذا المكان، كما أخبرته أن يصنع ذلك التمثال الكبير أمام الكهف.

صمت "شابان" وهو يزوي ما بين حاجبيه علامة التفكير العميق قبل أن يعود ويقول:

- لقد أدخلت روح الإله في عقل الكاهن الأول شكل ذلك التمثال وهيئته، كما أخبرته أن يصنع تمثالين للإلهين (منون) و(شمنان)، ثم فيما بعد صنع الكهنة وبوحي من كبير الآلهة (زولا) تمثال الإله (فمنان)، على أن يغيروا شكل الإله (منون) فتصير رأسه رأس نسر، بدلًا من رأس الذئب التي كان عليها.

صمت "شابان" رغما عنه وهو يبتلع ريقه الذي جرى من فرط حماسه، وهو يقص عليهما القصص، ومع سكوته ساد الصمت المكان، لكن الصمت طال كثيرا في هذه المرة مما جعل "شابان" يقطعه بنفسه وهو يقول:

- ثم أخبرهم كبير الآلهة تباعا كيف يريد أن يكون شكل السجود له وكيفية عبادته، وما يحبه ويكرهه، وما يريد منا أن نفعله وما يجب علينا ألا نفعله، كلَّ ذلك لكي يعلمه الكهنة للناس من حولهم، ثم جاء الأمر منه بوجوب تقديم القرابين له، وهو في المقابل سوف يعطيهم الخير والنماء ويحميهم على الدوام، ويحافظ لهم على الماء في البئر.

كانت "الابا" تنظر في دهشة إلى "كالاب" ثم تعود فتنظر إلى "شابان" غير مصدقة لما تسمعه، إلا أنها انتبهت إلى أن الوقت قد تأخر كثيرًا وأن عليها العودة إلى البيت سريعًا فقالت وهي تنهض في عجلة:

- لقد تأخر بنا الوقت ولابد أن نذهب.

أومأ "كالاب" برأسه، وهو يجري أمامها سريعًا قبل أن يلتفت ويقول:

- إلى اللقاء يا "شابان"، لقد استمتعت بالحديث معك كثيرًا.

كانت "لابا" تكتكم أنفاسها وهي تسير على أطراف أصابعها، وفي حذر تحاول الدخول إلى القصر دون أن يشعر بها أحد، وأخيرًا أخرجت نفسها الذي كتمته طويلا حين دلفت إلى مكان نومها الخاص دون أن يراها أحد، أو هكذا كانت تظن، لقد رأتها أمها من البداية وهي تجري مسرعة ناحية البيت قبل أن تتوقف أمام بابه وتشير بيدها إلى شخص ما يقبع هناك أمام البيت، وتعرفت عليه الأم، فقد كان "كالاب" كالعادة.

* * * *

(٣)

قد يظن الناظر إلى تلك القرية أنها تقبع هناك منذ قرون عديدة، وليست مجرد قرية حديثة لا يتعدى وجودها أربعة قرون، قد يقول أحدهم إن حضارتها ضاربة الجذور في التاريخ، فمع وجود ذلك النظام الذي تعمل به القرية والقوانين التي تتحكم في أهلها كانت تنعم بالاستقرار الظاهري، ومع نظام البناء الذي اعتمدوه لبيوتهم ودور عبادتهم، بحيث كانت أبنيتهم مزيجا من أخشاب الأشجار والحجارة، بحيث تعتمد طريقتهم في البناء على استخدام سيقان الشجر كقوائم رأسية تتحمل ما يوضع عليها من جزوع وجريد وقش كسقف لها، أما الحوائط نفسها كانت تبنى من الحجارة التي تتراص فوق بعضها، ويمسك بعضها بعضا التراب المخلوط بالماء، حتى أنهم عرفوا التقسيم الداخلي للبيوت وغرف النوم وغرف المعيشة وغيرها، وحفروا حفرًا في الأرض بها خزانات من الحجارة لها أغطية تخفيها إلا من فتحات يستخدمونها لإخراج الفضلات، وحين تمتلأ تلك الخزانات كانوا يفرغون ما فيها ويستخدمونه كسماد للزراعة.

كان "سعدون" يجري في مرح، وقد انتصر على رفيقيه في سباق العدو، فهو وإن كان ممتلئ الجسد إلا أنه يعدو بسرعة عالية، توقف ثلاثتهم حين وصلوا إلى ذلك المكان حيث قادتهم أقدامهم إليه،

فقد بدا لهم أنهم لم يروه من قبل، وهذا يعني أنهم قد ابتعدوا كثيرا هذه المرة، لقد كانوا بالفعل يقفون على حدود القرية.

أخذ كلٌّ منهم يجول ببصره هنا وهناك ليستكشف المكان من حوله، بدا لهم أنه المكان المخصص للزراعة والذي يحرم على الكثيرين من أهل القرية أن يذهبوا إليه، مثله في ذلك مثل بعض الأمكنة الأخرى التي يسمعون عنها من آبائهم أو ذويهم، وأحيانا تأتي "سناح" على ذكرها في الصلاة، وهذا المكان هو أحدهم، محرم على الجميع إلا المزارعين أنفسهم ونفر من رجال الكاهن الأكبر؛ ولذلك فقد أسرعوا ليختبئوا خلف صخرة كبيرة، أخذ "كالاب" ينظر من خلف الصخرة في حذر وهو يقول في حيرة:

- لكن لماذا ينقسم المكان إلى ثلاثة أقسام؟

أطلت "لابا" برأسها وهي تنظر إلى ما بدا لها ثلاثة أقسام شاسعة بالفعل، وإن كان يفصل بين كلِّ قسم وآخر فاصلٌ من الأرض الجرداء، تجرأ "سعدون" وأطل برأسه هو الآخر قبل أن يقول في دهشة:

- نعم، هم ثلاثة أقسام! لقد كنت أظنهم اثنين فقط، فهنالك قسم للحبوب والغلال حيث يزرعون القمح والذي يقوم على طحنه وخبزه مجموعة أخرى من أهالي القرية وهم الخبازون؛ ثم القسم الثاني

المخصص للخضراوات والفاكهة وهو الطعام الرئيسي لأهل القرية جميعًا.

كاد أحد المزارعين أن يراهم لكنهم تحركوا في حذر ليختبئوا مرة أخرى خلف الصخرة، و"سعدون" يكمل كلامه بصوت خافت:

- أما القسم الثالث فلا أعلم عنه شيئًا.

كان "سعدون" يتكلم بطريقة العليم ببواطن الأمور، مما جعل "لابا" و"كالاب" ينظران إليه في دهشة جعلته يشعر بالخجل، وقبل أن يتكلم أحدهما اندفع هو يقول:

- لقد أخبرني أبي عن وجود مثل هذا المكان، هل نسيتما أنه كبير الطهاة؟! وعلى كلٍ فقد أخبرني عن القسمين ونوع المحاصيل فيهما.

وفي بطء أكمل:

- لكنه لم يخبرني عن وجود قسم ثالث هنا.

قالت "لابا" في حذر:

- ربما لم يعلم بوجوده من الأساس.

زوى "كالاب" ما بين حاجبيه وقد أفزعته الفكرة.

مرت لحظات من الصمت، قطعها "سعدون" فجأة وهو يقول في خوف:

- دعونا نذهب من هنا قبل أن يرانا أحدهم.

لكن "كالاب" تحرك من خلف الصخرة في لا مبالاة وهو ينظر بعيدا ويقول:

- ولكن ما هذا الذي يوجد هناك؟

قالها وهو يشير في القسم الثالث من الأرض المزروعة، إلى نوع من النباتات الضخمة ذات الأوراق الكبيرة، والتي مع كثرة حركة أغصانها يمينا ويسارا يظن الناظر إليها أنها حية تسعى؛ مما جعله يكمل في دهشة :

-إن أغصانها تتلوى وتتحرك كأنها أذرع حيوان ما !

ظلت "لابا" في مكانها وهي تقول بصوت خافت وإن بدا عليه الرهبة:

- هل يعقل أن تكون هي؟!

ثم تحركت من خلف الصخرة وهي تنظر بعيدًا وتقول:

- أهي نبتة الآلهة؟!

نظرا إليها في دهشة، لقد كانت أول مرة يسمع فيها أحدهما مثل هذا الاسم، مما جعل "كالاب" يردد:

- نبتة الآلهة!

- نعم، هي المرة الأولى التي أراها فيها أيضا، لكني سمعت الكاهن الأكبر خلسة وهو يصفها لأبي من قبل، هي نبتة لا يعرف عنها الكثيرون من أهل القرية شيئا، فقط أولئك النفر الذين يزرعونها والكهنة الذين يأتون ليأخذوا بعضًا منها إلى داخل الكهف حيث تختفي معهم بالداخل.

كان "كالاب" ينظر إليها في ذهول، حين قال "سعدون" في استنكار:

- حكاية أخرى من نسج خيال "لابا".

همتْ أن ترد بشيء ما، لكن "كالاب" وضع يده على فمها وهو يحثها على أن تنظر إلى حيث يشير لها، نظرت فرأت أحد الرجال يرتدي ملابس الكهنة وهو يقترب في حذر من إحدى تلك النباتات ويتوقف على بعد خطوات منها، وفي حذر اقترب ثلاثتهم من ذلك الكاهن، وهم يختبئون خلف صخرة أخرى ويختلسون النظر؛ ليروا ما يفعله الكاهن في وضوح، وفي وضوح رأوا أوراق ذلك النبات وهي تفتح ما يشبه الفم، وأغصانها تتحرك يمينا ويسارا.

غمغم "كالاب":

- عجبا! إنها تحاول أن تقبض على يد الكاهن!

كان الكاهن يحمل ما يشبه جزءًا علويًّا من جمجمة عظمية كما بدا لهم، انتفض ثلاثتهم في رعب حين رش الكاهن ذلك السائل الموجود بداخل الجمجمة على النبتة فتأوهت، حتى أنهم سمعوا أنينها، وبعد لحظات معدودة همدت حركتها تماما، مد الكاهن يده وقطع بعض أوراقها وهو يثنيها فوق بعضها البعض، ثم أخفاها داخل ملابسه وابتعد بها مسرعا.

ودون أن يدري أي منهما وفي جسارة ولَّدها الموقف تبعه "لابا" و"كالاب"، لكنهما ما لبثا أن توقفا في مكانهما عندما سمعا صوت "سعدون" يقول:

- دعونا نعود إلى القرية، إنها ليلة السمر حول النار حيث لابد لأهل القرية أن يجتمعوا عن بكرة أبيهم في الساحة حول النار.

لكن "لابا" توجهت إليه في سرعة ثم سحبته من يده وهي تقول:

- لا تقلق، سنعود إلى القرية في الوقت المناسب.

حاول ثلاثتهم اللحاق بذلك الكاهن الذي اختفى بالفعل من أمامهم، وفي صعوبة نجحوا في اللحاق به، ذلك لأن الكاهن يتخذ

طرقًا خلفية لم يسلكوها هم من قبل، وكأنما يريد أن يتخفى عن أعين أهل القرية، حتى وصل إلى كهف قدس الأقداس نفسه واختفى بداخله، وفي حذر تبعه ثلاثتهم إلى الداخل، وهم يختلسون النظر إلى ما يفعل.

أخرج النبتة من بين طيات ملابسه قبل أن يثني أوراقها فوق بعضها البعض لكي يستطيع إدخالها بأكملها داخل جزء الجمجمة نفسه، ثم وضعها فوق موقد، وأشعل النار، ثم صب عليها سائلا أحمر غليظا يشبه الدم.

تبادل ثلاثتهم النظر غير مصدقين ما يرونه أمامهم، وبعد مرور دقائق قليلة، أطفأ الكاهن النار، ثم ألقى ما بداخل الجمجمة إلى داخل جرن حجري وأخذ يطحنه، وهنا سمع ثلاثتهم صوت كبير الكهنة يأتي من عمق الكهف وهو يوجه كلامه إلى ذلك الكاهن ويقول بصوت حاد:

- أسرع أيها التعس، إن كبير الآلهة يريد الظهور الليلة وأهل القرية مجتمعون حول النار.

مال "سعدون" على أذن "لابا"، وهو يقول في رعب هامسا:

- دعينا نذهب من هنا الآن، أرجوك.

نظرتْ إلى "كالاب" تطلب رأيه، فهز رأسه علامة الموافقة.

تحسس كلٌّ منهم خطواته وهم يبتعدون عن الكهف في هدوء وحذر، كانوا لا يزالون يشعرون بالخوف وهم يهبطون من أعلى الجبل ويستترون بالظلام حتى هبطوا بالفعل، وفي خلسة انضموا إلى أهل القرية الذين كانوا يرقصون ويغنون ويشربون الخمر وهم يلتفون حول النار في ساحة القرية، ثم تفرق ثلاثتهم.

أطلقت "لابا" تنهيدة ارتياح حين استطاعت أخيرًا أن تقف بجوار جدتها التي انتبهت لقدومها، فرمقتها بنظرة عتاب وإن لم تقُل لها شيئا، لكن أمها قد رأتها، لقد كانت تتبعها بعينيها من البداية وهي تلتف مع صديقيها حول الجمع قبل أن تندس بينهم.

لم تلبث "لابا" أن اندمجت مع الجمع من حولها وهم يرقصون ويغنون حول النار حتى أنها قد نسيت ما رأته منذ قليل، وبينما كانت تصفق بيديها الرقيقتين وهي تطلق ضحكاتها المميزة، رأى الجميع ضوء أصفر يبرق في شدة، عند قمة تمثال كبير الآلهة القابع أعلى الجبل بجوار كهف قدس الأقداس، ضوء أصفر عظيم ألجم ألسنتهم، وساد الخوف بين الجميع، وغلف القرية الصمت إلا من بعض الهمهمات هنا وهناك، ثم سمعوا صوت زمجرة تأتي من عند الكهف نفسه، ليخيم على الجميع صمت تام وكأنها القبور.

كان الجميع ينتظرون الكاهن الأكبر حتى يأتي ويفسر لهم ما حدث، تجرأ "كالاب" واقترب من "سعدون" ثم ما لبثت "لابا" أن انضمت إليهما، نظروا إلى بعضهم نظرة ذات مغزى، وقد أيقنوا أن ما حدث له علاقة بما رأوه داخل الكهف.

وبينما كان ثلاثتهم يقتربون من بعضهم البعض، سمعوا بعض الكلمات التي تأتي من حولهم، والتي حاول أصحابها بقدر الإمكان خفض أصواتهم، لكنهم استطاعوا أن يميزوا بعضها، كانت في معظمها تدور حول أن هذه الظاهرة قد حدثت من قبل، مع اختلاف لون الضوء واختلاف نبرة الصوت، ثم سمعوا أحدهم يقول والخوف بادٍ على صوته:

- أخشى أن يكون كبير الآلهة يريد أحدنا قربانا له.

نهره آخر، وطلب منه أن يخفض صوته قبل أن يقول بلهجة العالم ببواطن الأمور:

- لقد توقفنا عن تقديم أنفسنا أو أبنائنا قرابين منذ سنين، هناك آخرون.

- هل تقصد الغرباء؟

- صه.

- ألا تتذكر "شلول"؟! ذلك الصبي الذي طلبه الإله بالاسم أثناء الاحتفال بالعيد.

بدا الحزن على وجه الآخر وهو يقول:

- لقد كان صبيًا رائعًا.

- صبيًا! لقد تعدى عمره السابعة عشر حينها.

- أعلم أنه ممنوع في جميع الأحوال أن يقل عمر القربان عن السادسة عشرة، وعلى أية حال يكون الضوء أحمر في حالة القرابين وليس أصفر كما حدث الآن.

علا صوت الكاهن الأكبر فجأة:

- إن الإله (زولا) غاضب عليكم، لقد ازداد الرقص والفرح بينكم، وقلَّ له سجودكم، وعقابًا لكم سينفض الآن جمعكم وتذهبون على الفور إلى بيوتكم، وممنوع عليكم الاحتفال مرة أخرى حتى يرضى الإله عنكم.

ذهب الجميع في عجل، و مرة أخرى ساد القرية الصمت.

* * * *

(٤)

كالعادة وبرغم تحذيرات أمها وأبيها لها كانت "لابا" تقضي معظم وقتها مع "كالاب"، يطوفان القرية مع "سعدون" على أمل أن يكتشفوا جديدًا في كلِّ يوم، وفي هذا اليوم، ذهبوا إلى مصنع الخمور حيث كان المزارعون يأخذون العنب إليه، ثم يقوم العمال بعصره وتعتيقه في غرف محفورة داخل الأرض.

تسلل ثلاثتهم إلى داخل المصنع الكبير، وفي حذر، أخذوا يتقدمون عميقا بداخله حتى وصلوا إلى الغرف المخصصة للتخزين، والتي لا يظهر منها سوى أغطية حجرية ضخمة مرصوصة على الأرض، محفور عليها المدة التي لابد أن تبقى فيها تلك الغرفة مقفلة، هذا غطاء مكتوب عليه (يبقى مغلقًا لعام) وهذا (... لخمسة أعوام)، أما هذا فمكتوب عليه (... لعشرة أعوام) مع ملاحظة مكتوب فيها بأنه مخصص لحاكم القرية والكهنة فقط، كادت أعين ثلاثتهم أن تقفز خارج وجوههم حين رأوا غطاءً مكتوب عليه (مخصص للآلهة.. يبقى مغلقا لمئة عام)

كان ثلاثتهم يناقشون ما رأوه داخل مصنع الخمور وهم في طريقهم إلى البئر ليلاقوا "شابان"، حيث أصبح جلوسهم معه جزءًا لا يتجزأ من روتين حياتهم، وقد صار صديقا مقربا لهم، ذلك النوع من الأصدقاء الذي يحتاجه شخص من نوعية "كالاب" على الأخص؛

وهذا ما كان يدور في عقله في هذه اللحظة، كان يحدث نفسه بأن ما يميز "لابا" هو إعطاؤه الثقة لكي يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه بحرية ودون خجل، لكن "شابان" جعله يعبر عن أفكاره في يسر وسهولة، فهو بطريقة ما يشعره بالتميز مما يجعله يفكر بذهن صاف ويحدد أفكاره بدقة أكبر.

وصلوا إلى البئر فاتجهوا من فورهم إلى "شابان"، الذي كان يجلس على صخرة كبيرة أمام بابها، ألقوا عليه التحية في مرح، ثم جلسوا من حوله في سرعة وهم يقصون عليه ما رأوه داخل المصنع، و"كالاب" يقول في سرعة:

- مئة عام! يريدون أن يعتقوا الخمر لمئة عام! الآلهة تشرب الخمر!

ثم التفت إليهم وهو يقول بصوت غلب عليه الاستنكار:

- ومن الذي يضمن أن يحيا لمئة عام؟!

نظر إليه "شابان" نظرة غريبة وقد علت وجهه الدهشة قبل أن يقول:

- إن ما قلتَه الآن، هو نفس ما قاله ذلك النبي الذي أخبرتكم عنه، فمنذ عشرة أعوام قال وهو يخاطب "كشح" و"عرعر"، وعلى

مسمع من أهل القرية جميعا: كيف تعتقون الخمر لمائة عام، وكأنكم مخلدون في الأرض؟!

وصمت الجميع فلم ينطقوا بكلمة واحدة بعدها حتى غادروا.

جرت "لابا" في خفة ونشاط إلى داخل البيت وهي تنادي على أبيها:

- أبى، أبي.

وهو الذي كان يستقبلها في هذه الوقت عادة بالأحضان ويقبلها، ثم يسألها عن يومها وكيف قضته وهي تمرح مع أصدقائها هنا وهناك، لكنها في هذه المرة لم تسمع أيَّةَ إجابةٍ منه، فقط الصمت المطبق كأنه لا يوجد أحد في البيت، فتوقفت عن النداء وهي تتلفت حولها في حيرة، ثم جرت قدميها إلى الداخل في حذر وهي تنظر هنا وهناك تبحث عنه.

وصلت إلى مدخل البهو الفسيح حيث يدير أبوها شؤون القرية، وحين همت بالدخول سمعت صوت أمها يعلو فجأة من الداخل فتسمرت في مكانها تنصت:

- لن أنتظر حتى أفقدها هي الأخرى، لابد أن تتصرف يا "عرعر".

- وماذا عليَّ أن أفعل، يا مولاتي؟

- أزح "كالاب" هذا عن طريقها بأيّ شكلٍ كان، وبأي ثمن.

هنا سمعت صوت أبيها وهو يقول في حزن:

- ما حدث له لم يكن خطأك ولا خطئي، لقد كان اختياره هو.

قال الكاهن في استنكار:

- لقد كان من الصعب على أحدنا أن يتنبأ بما سيفعله، فهو لم يبدُ عليه أي شيء مختلف، لقد كان يصلي ويسجد للآلهة شأنه شأن أقرانه من شباب القرية.

وهنا قالت الأم وقد فاض بها الكيل:

- لكنه كفر بالآلهة، وتركنا وذهب مع ذلك الرجل الذي ادعى أنه نبي مرسل من عند رب العالمين.

ثم نظرت إلى زوجها وهي تقول:

- هل نسيت ماذا قال عن إلهنا العظيم قبل أن يرحل؟

وقبل أن ينطق "كشح" بأية كلمة أكملت هي تقول:

- لقد قال عنه إنه مجرد صنم لا ينفع ولا يضر، وأنت، أنت تركتهم يرحلون ويأخذونه معهم.. يأخذون "تيرا"، كان يجب عليك أن تقتلهم جميعا.

قال "كشح" وقد فاض به الكيل هو الآخر:

- هل كنت تريدينني أن أقتل ابني؟!

شهقت "لابا" حين سمعت ذلك، لكنها وضعت يدها على فمها حتى لا يسمعها أحد.

تدخل كبير الكهنة ليلطف الجو بين الزوجين وهو يبتسم ويقول بهدوئه المعهود:

- لقد بشرتني روح الإله أن موعد عودته قد اقترب.

نظرا إليه في لهفة وهو يكمل:

- نعم، سيقذف الإله النور في قلبه، ويدله إلى الطريق الصحيح وسيعيده لنا سالمًا.

ابتسم "كشح" ابتسامة فرح، وتنهدت الأم في ارتياح وهي تقول:

- أخيرًا سيعود ابني "تيرا" إليَّ.

ثم نظرت إلى الكاهن نظرة حيوان مفترس وهي تقول في كره واضح:

- لم يتبقَ لنا إلا أن نتخلص من "كالاب" هذا.

قال الكاهن في حذر:

- ولكن كيف سنتخلص منه؟!

قالت في سرعة وبلهجة ذات مغزى:

- بالتأكيد تعلم كيف، فأنت كبير الكهنة.

ساد الصمتُ المكانَ، إلى أن قطعه "عرعر" بصوت خافت بالكاد سمعته "لابا":

- كما تعلمين، يا مولاتي، فإن القربان يجب أن يتخطى عمره السادسة عشرة.

ساد الصت لحظات قبل أن يضيف بصوت أعلى قليلا:

- ثم إننا قد توقفنا عن تقديم أبنائنا قرابين للآلهة، الإله (زولا) الرحيم قد وجد لنا بديلا حين أرشدنا لنبني ذلك البناء العالي ليهتدي به التائهون، وحين يأتون إلينا نرحب بهم ونجعلهم يقيمون في البيوت أعلى الجبل، ومن ثم نقدم لهم الطعام والشراب والنساء، وبعدها وبينما هم سكارى أو نائمون نذبحهم ونقدمهم للآلهة قرابين.

كانت "لابا" تفتح عينيها عن آخرهما غير مصدقة لما تسمعه وهي تحدث نفسها "هذا إذًا ما لم يرد "شابان" أن يخبرنا به، كما أن أخي "تيرا" حي!" إلا أنها ما لبثت أن توقفت عن التمتمة، وقد انتفض قلبها حين علا صوت (عرعر) فجأة وهو يقول:

- لم يتبقَّ سوى يومين على يوم الغفران.

رد عليه "كشح" وقد استعاد هدوءه:

- أعلم ذلك، ولكن هل هناك أي تغيير في الطقوس، أم ستكون مثل كلِّ عام؟

- نفس الطقوس يا مولاي.

- هذا يعني أنه في الصباح يجب أن يذهب أهل القرية جميعًا من دون أن يتناول أي منهم طعاما أو شرابا إلى أسفل كهف قدس الأقداس، يستثنى من ذلك الصبية والبنات من سن العاشرة حتى سن السادسة عشرة؛ فهم يبقون في بيوتهم ينظفون ويعدون الطعام.

- نعم يا مولاي، ثم يسجدون هناك، ويظلون على حالهم هذه ساجدين دون أن تبدر منهم أي شاردة أو واردة، حتى يأذن لهم الإله (زولا).

نظرت إليه الأم في حزم مما جعله يتنحنح قبل أن يقول:

- مع تغيير واحد.

تطلع "كشح" إليه وهو يكمل ويقول:

- سيسمح لأولئك البنات والصبية دون السادسة عشرة بحضور الاحتفال، وهنا يأتي دوري مع "كالاب".

قال الجزء الأخير من كلامه بنبرة غامضة، انخلع لها قلب "لابا" التي تقف متسمرة في مكانها لا تقوى على الحركة بعد كلِّ ما

سمعته، لكنها أخيرا استطاعت أن تجر قدميها جرًّا وهي تسير مبتعدة، وتقول في نفسها:

- لماذا يريدون أن يتخلصوا من "كالاب"؟! وكيف لا يزال أخي حيا؟ لقد أخبروني أنه قد مات وأنا ما زلت طفلة صغيرة، من المفروض أن يكون قد مر على موته الآن ما يقرب من العشر سنين! ماذا يعني هذا كله؟!

خرجت من البيت مسرعة، وهي لا تدري أين تذهب أو ماذا عليها أن تفعل، لم تدرِ بنفسها إلا وهي تجري في اتجاه البئر وتنادي بأعلى صوتها:

- "شابان"، "شابان".

هب "شابان" واقفا وهو ينظر إليها، وقد أفزعته نبرة الهلع في صوتها والسرعة التي تجري بها ناحيته، وما إن اقتربت منه حتى قال لها في قلق واضح:

- ماذا هناك؟ هل كلُّ شيء بخير؟

كان صدرها يعلو ويهبط في سرعة مع كلِّ شهيق وزفير، حتى أنها لم تستطِعْ الكلام في البداية، فقال لها "شابان" في ودٍّ ليبث الطمأنينة في قلبها:

- اجلسي، والتقطي أنفاسك ثم أخبريني ماذا حدث.

جلست وهي تنظر إليه، وقد بدأ نفَسُها يهدأ رويدًا، ثم بدأت تخبره بما حدث وما سمعته.

كان "شابان" يستمع إليها وهو يعقد حاجبيه في إنصات تام دون أن يقاطعها حتى انتهت من كلامها تمامًا، سادَ الصمت حتى قطعه "شابان" وهو يقول:

- هما أمران إذًا، أمر "كالاب"، وأمر "تيرا" الذي ذهب مع ذلك الرجل مُدَّعِي النبوة.

ثم نظر إليها، وهو يقول بلهجة مَن فَهِمَ الأمر:

- ولذلك لم يقتلْهم أبوكِ، وإلا كان عليه قتْل أخيكِ أيضًا.

سألته "لابا":

- وهل سمع أيُّ أحدٍ عنه بعدَها؟ هل جاءتنا أيُّ أخبارٍ منه؟

- لا، لم يسمعْ أحد عنه بعدها أبدًا.

قالت "لابا" وقد استعادت هدُوْءَها تماما:

- لكن كبير الكهنة قال: إنه سيعود قريبا، وإن هذا ما أخبرته به روح الآلهة.

ثم تذكرت أمرًا ما، فقفزت من مكانها كأنما لدغها ثعبان، وهي تنظر إليه وتقول في فزع:

- ماذا كانت تعني أمي بالتخلص من "كالاب"؟

لم يجِبها على الفور، فقد كان عقله مشغولًا بالفعل بالقلق على "كالاب"، وما يمكن أن يحدث له، لكنه أراد أن يبثَّ في قلبها القليل من الطمأنينة، فابتسم لها وهو يقول:

- ما عمرُك الآن، يا "لابا"؟

- أربعة عشرة عامًا.

ثم قالت في سرعة:

- وهو نفس عمر "كالاب".

تنهد "شابان" تنهيدة ارتياح، ولاحت على وجهه شبحُ ابتسامة باهتة، قبل أن يقول:

- اطمئني، لن يحدث لـ"كالاب" أيُّ مكروهٍ، فعلى الأقل هو لن يكون قربانًا للآلهة، فالشيء الذي لا تعرفينه هو أن سنَّ القرابين لا يمكن أن يكون أقل من السادسة عشرة.

تذكرت "لابا" شيئا ما فابتسمت في ارتياح قبل أن تقول:

- نعم، لقد سمعت أحدَهم يذكر الأمر من قبل، كما سمعت كبير الكهنة يذكره الليلة أيضا.

- هيا عودي إلى البيت، ولا تخبري أحدًا مما سمعت وعرفت الليلة، وخصوصا "كالاب".

قالها والقلق يعصف بكيانه كله؛ ذلك لأن السماح لمن هم دون السادسة عشر بحضور يوم الغفران يعني أن "كالاب" و"لابا" سيحضران.

* * * *

(٥)

بدا الجو لطيفًا في صباح يوم الغفران، خصوصًا مع تلك النسمة الرقيقة التي تنعش الأنفاس، وبحسب الطقوس فقد اغتسل جميع أهل القرية وتزينوا قبل أن يخرجوا في هذه المرة عن بكرة أبيهم ليتجمعوا أسفل كهف قدس الأقداس، عند تلك المنطقة شبه المستوية من الجبل. الجميع يسجدون، تمتلئ صدورهم وقلوبهم بمزيج عجيب من المشاعر والأحاسيس، التي تتأرجح بين طمع ورجاء وخوف.

يطمعون في دوام نعمة الماء عليهم، ويرجون أن ينالوا رضا الإله، ويخاف كلٌّ منهم من أن يأتيه ما لا يسره اليوم، وكيف لا؟ فهو يوم الغفران، حيث يرحم الإله البعض إن شاء ويعاقب البعض إن شاء، كما حدث من قبل وطلب هو قربانًا بالاسم من بين الحضور، والغريب أنه كان مجرد صبيٍّ تعدى سنُه السادسةَ عشر بأيام.. هو يوم المفاجآت.

مرت فترة طويلة وهم سجدا من دون أن يتجرأ أحدهم أن يبدي أية حركة أو ينطق بكلمة، حتى مع صوت بكاء الأطفال الذي بدأ يعلو ويزداد لم يتحرك أحد منهم، ثم خرج كبير الكهنة من داخل الكهف ليطل عليهم بوجهه العبوس، ورفع يده وهو يقول بصوت عال وبنبرة آمرة:

- ارفعوا وجوهكم.

رفع الجميع وجوههم عن الأرض وهم ينظرون إليه في رهبة ولدها الموقف، وصمت هو قليلا مما زادهم رهبة قبل أن يستطرد ويقول:

- إنه يوم عظيم، إنه يوم الغفران، اليوم الذي تجلت فيه رحمة الإله (زولا)، فوهبنا الغفران، ولأن الخطيئة لا يغفرها إلا الدمُ، فقد وجب علينا في سبيل نيْل مغفرته أن نعطيه من دمائنا قربانًا، آملين أن يتقبله منا وأن يديم علينا نعمته ومغفرته.

صمت قليلا ليعطي كلماته فرصة التأثير في نفوسهم ثم استطرد:

- لكنه إله رحيم، لقد أعتق دماءنا نحن وكفل بها غيرنا، يأتون إلينا بأقدامهم فنقدم لهم الطعام والشراب والمأوى، وكما قدمنا لهم ففي المقابل يجب عليهم أن يقدموا لنا دماءهم قربانًا للآلهة، فالآلهة هم من يختارونهم، ومن ثمَّ يقودونهم إلينا.

كانت خطبة عظيمة من خطب كبير الكهنة التي اشتهر بها بين أهل القرية، وحين فرغ من خطبته صمت فترة ليستريح، ثم عاد ليقول بلهجة آمرة يشتم منها رائحة الشماتة:

- لكن اليوم، ولنتذكر رحمة الإله بنا سوف يكون هناك قربان من بيننا.

سررت همهمة بين أهل القرية، لكن كبير الكهنة سيطر عليهم وألجمهم، وأمرهم أن يصمتوا بصوت جهير، وعندما صمتوا تمامًا عاد يكمل ويقول:

- ستختار الآلهة هذا القربان بنفسها، ولكن سيكون الاختيار في هذه المرة من بين الصبية دون السادسة عشرة.

سادت تنهدات ارتياح مختلطة بشهقات الفزع، شعور بالارتياح لمن ضمن أن يتجاوزه الاختيار، وشهقات الفزع لمن وقع بين الاحتمالات هو أو أحد من أهله.

كانت مراسم الاختيار تتضمن أن يقف كلُّ من يُحتمل اختياره قربانًا أمام تمثال (زولا)، ثم يركع لدقيقة قبل أن يتلقى الكاهن الأكبر الإشارة من روح الإله، على أن تكون الإشارة هي صدور فرقعة يسمعها كبير الكهنة فقط.

وقف جميع الصبية دون السادسة عشر عام مطأطئين رؤوسهم، يتقدم واحد تلو الآخر. كان الجميع يسمع تنهيدة ارتياح من هنا أو هناك يطلقها أهل الصبي بعد أن يعلن كبير الكهنة عدم وقوع الاختيار عليه، ثم علا صوت كبير الكهنة في دهشة عارمة حين سمع الصوت، والغريب أنه لم يكن هو فقط من سمعه بل جميع من حوله قد سمعوا صوت الفرقعة، وكبير الكهنة يقول:

- إنه هو!

قالت "لابا" في فزع:

- "سعدون"!

أصيب كبير الكهنة بالحيرة، لقد طلب من الآلهة، بل وألح في طلبه، أن يقع الاختيار على "كالاب"، وجاءته الإشارة في حينها بقبول طلبه، ولذلك فقد كان على يقين من أن الاختيار سوف يقع على "كالاب".

علا صوت "عرعر" وهو يقول في دهشة:

- كيف ذلك؟!

وقفت أم "لابا" وهي تنظر إليه في غضب شديد، وجرى "كالاب" فجأة ناحية "لابا" وهو يقول:

- لا يمكن، يا "لابا"، لا يمكن أن يسفكوا دم "سعدون" ويقدموه قربانًا.

نظرت أمها إليه وهي تقول في مقت واضح:

- اخرس، أيها التعس، كان يجب أن تكون أنت القربان وليس "سعدون"، اذهب وقف في مكانك.

ثم نظرت إلى زوجها وقالت:

- يجب عليك أن تتصرف الآن.

قال "كشح" وهو ينظر إلى "كالاب" ويقول في حزم:

- اذهب الآن إلى مكانك دون كلمة واحدة وإلا سينالك عقابي، أفهمت؟

نظر "كالاب" إلى "لابا"، ثم استكمل كلامه غير مبالٍ بتهديدات الزعيم وزوجته:

- سيقتلون "سعدون"!

الغريب في الأمر أن أبوي "سعدون" أنفسهما لم تبدر عنهما أية حركة أو حتى كلمة، وهما يقفان في مكانهما منكسَي الرأس في استسلام غريب، وكأنهما يقولان هذا قدرنا الذي يجب أن نرضَى به.

نظرت "لابا" إلى أبيها قبل أن تقول بصوت باكٍ:

- أرجوك يا أبي، أرجوك افعل أي شيء.

أشار "كشح" بيده إلى بعض الحراس أن يأتوه، وحين جاءُوا أمرهم أن يقبضوا على "كالاب"، إلا أن الأخير راوغهم، ثم تملص منهم، وجري في اتجاه "سعدون"، يحاول أن يخلصه من بين أيدي الكهنة الذين كانوا يسوقونه بالفعل في اتجاه الكهف، أمسك يد الكاهن التي كانت تقبض على كتف "سعدون"، وأزاحها بعيدا عن كتفه وهو يقول في سرعة:

- اهرب يا "سعدون"، اهرب.

لكن باقي الكهنة أمسكوا بهما في إحكام، وكبير الكهنة ينظر في مقت إلى "كالاب" ويقول:

- ماذا تريد أن تفعل أيها الشقيُّ؟ ألا يكفيك أنني أخطأت لأول مرة؟!

ثم أضاف:

- كان يجب أن تكون أنت القربان.

واستطرد:

- ستجلب علينا غضب الآلهة.

ثم نظر إلى أهل القرية وهو يقول بصوت جهوري:

- إنه كافر.. كافر، سيجلب علينا غضب الآلهة.

لكن "كالاب" قاطعه وهو يقول في شجاعة:

- أي آلهة هؤلاء الذين لا يرضيهم إلا سفك الدماء؟! أي إله هذا الذي يقبل بقتل البشر قربانًا له؟!

وهنا فاض بكبير الكهنة الكيل لكنه صمت قليلا وكأنما يتلقى من روح الإله شيئًا ما، وسمعوا جميعا صوت فرقعة عالية فاق صوتها صوت الواحدة التي سبقتها، ثم رفع رأسه وهو يقول في سعادة:

- لقد حكم عليه بالموت.

التقط "عرعر" أنفاسه وهو ينظر إلى "كالاب" في تشف واضح ويستكمل كلامه ويقول:

- ستكون أنت القربان، بدلا من "سعدون" هذا.

قام "كشح" وهو يقول في توتر:

- هل هذا رأيُ الإله، يا كبير الكهنة؟ أم هو رأيك أنت؟

قال "عرعر" في توتر مماثل:

- بل هو رأي الإله، لقد أصبح "كالاب" هو القربان.

لم يثر "كالاب" لإنقاذ نفسه كما ثار لـ"سعدون"، كان يبدو عليه هدوء عجيب وهو يسير في استسلام واضح مع الكهنة في اتجاه الكهف، ثم توقف فجأة ليلقي نظرة وداع على "لابا"؛ "لابا" التي كانت في هذه اللحظة تضرب الحراس ليتركوها تذهب إليه، "لابا" التي كانت تصرخ وهي تنادي اسمه بأعلى صوتها.

كان المشهد عجيبا بحق و"كالاب" يسير مع الكهنة في هدوء، ينظر بعينيه إلى ما يحدث دون أن يسمع كلمة واحدة، كمن فقد سمعه، أو كأنه يشاهد حلما ما، فقط يراهم وهم واقفين هناك، أمه و"سعدون" و"لابا"، وعلى مسافة منهم كان يقف "شابان" وهو يبتسم له ابتسامة يملؤها الحزن، والدموع تسيل من عينيه في صمت، والغريب أن

"كالاب" وسط كلِّ هذا قد ابتسم، بادل ابتسامة "شابان" بابتسامة هادئة، قبل أن يدخله الكهنة في قسوة إلى الكهف ويختفي داخله.

وهنا انهارت "لابا" تماما وهي تهبط على ركبتيها اللتين اصطدمتا في قوة بالأرض تجهش بالبكاء، وأصبح الصمت المطبق يغلف المكان خارج الكهف لا يقطعه إلا صوت نحيبها، لم تدر بـ"سعدون" الذي جلس بجوارها على الأرض وهو ينظر إليها نظرة خاوية كأنه لم يستوعب ما يحدث، قامت فجأة ونظرت نظرة طويلة على الكهف، ثم وقعت على الأرض مغشيًّا عليها.

لم تدرِ كم بقيت من الوقت مغشيا عليها، ثم أفاقت أخيرا لتجد نفسها مستلقية على ظهرها في غرفتها، وبحركة لا إرادية غادرت فراشها والبيت كله مسرعة تقصد البئر.

* * * *

(٦)

وصلت إلى البئر وهي تجر قدميها جرا، ومن خلف غشاء الوهن الذي ينسدل على عينيها رأت "سعدون" يجلس هناك على الأرض وهو ينظر إلى اللا شيء، اقتربت منه في بطء، فرأت الدموع تنهمر من عينيه في صمت.

ألقت جسدها بجواره وهي تنتحب بصوت عال، ومن بين دموعهما لمحا شبح شخص يسير في اتجاههما، وتعرفا عليه، لقد كان "شابان" يسير في بطء وهو يجر قدميه بدوره، وما إن وقعت عين "لابا" عليه حتى قامت وجرت ناحيته وقد ازداد انهمار دموعها كما ازداد صوت نحيبها، مال "شابان" بجذعه إلى الأمام وهو يفرد ذراعيه ويحتضنها، ثم هبط بركبتيه على الأرض، وهي تدفن رأسها بين يديه وصدره و تبكي في شدة.

تركها "شابان" لتفرغ كلَّ أحزانها على صدره قبل أن ترفع هي رأسها وتقول:

- لقد قتلوا "كالاب"، قتلوه.

قال "سعدون" في تأثر واضح والدموع تنهمر من عينيه:

- أنا السبب، كان من المفترض أن أكون أنا القربان وليس "كالاب".

ثم انهار في البكاء وهو يكمل:

- لقد كان يدافع عني، لقد كفر بسببي، أنا السبب.

قاطعته "لابا" في حدة واستنكار:

- كيف تقول عن "كالاب" إنه كافر؟ كيف؟!

نظر إليها وهو يقول في براءة واضحة:

- أنا آسف، يا "لابا"، لكنها الحقيقة.

نظرت إلى "شابان" نظرة استعطاف وكأنها تستجديه أن ينفي عن "كالاب" الكفر، لكنه لاذ بالصمت التام، ثم بدا عليه التردد قبل أن يحسم أمره، ويقول بصوت غامض:

- ما أنا على وشك أن أخبركما به هو سر، أريد منكما أن تعاهداني على كتمانه طوال حياتكما ولا تخبرا به أحدًا أبدًا.

تملكهما شعور بالدهشة نازع حزنهما في هذه اللحظة، وما إن عاهداه حتى قال بصوت تملؤه الرهبة:

- لقد جاءني "كالاب" بعد أن ذهبتم جميعًا بالأمس.

نظرا إليه في استغراب وقد توقفت دموعهما تماما، لكنه استطرد في سرعة:

- فوجئت به يجري ناحيتي وقد بدا على صوته الفزع وهو ينادي: "شابان"، "شابان". أجبته من فوري وقد تملكني القلق: أنا هنا

يا "كالاب"، مرحبا بك. وقف أمامي وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة ثم قال: هل ترى شيئا ما يأتي من خلفي؟

فنظرت خلفه ولكن لم يكن هناك أي شيء، فقلت له: لا، لا يوجد شيء خلفك. وفي بطء وتردد نظر هو خلفه، وعندما لم يجد شيئا هناك تنهد ثم جلس يلتقط أنفاسه، وبعد لحظات من الصمت سألته: ماذا هناك؟

زفر في قوة ثم قال: لقد كنت مغمضَ العين، مستلقيا على ظهري في الفراش، يأخذني التفكير في أمر الإله، وكيف يمكن أن يختار الإنسان إلهه على هواه، بل كيف للإنسان أن يعطي هذا الإله صفات هي من اختياره بناءً على احتياجاته؟!

ثم صمت وبدا على وجهه الخجل حين رآني ابتسم إعجابا بما يقول، فطلبت منه أن يكمل كلامه، فاستكمل:

- وبينما أنا على هذه الحال سمعت فجأة صوتا يأتي من بعيد لكنه صوت قوي، كاد أن يخترق أذني وهو يطلب مني أن أقوم الآن وأذهب إلى البئر وأشرب من مائها.

ثم صمت قليلا وهو يلتقط أنفاسه قبل أن يستطرد:

- أصابني الفزع وعندما فتحت عيني لم أجد أحدًا، وبعد فترة أغمضتهما مرة أخرى لكني شعرت هذه المرة بضوء قوي يتسلل عبر

جفوني إلى داخل عيني المغمضتين، ضوء جعلني أشعر كأن الليل استحال نهارا ففتحت عيني في سرعة ورأيته.

نظر "شابان" إليهما وهو يبتلع ريقه ثم استطرد:

- وفي لهفة سألته: ماذا رأيت؟

شرد بذهنه وكأنما يبحث عن الكلمات ثم قال:

- نورًا! نورًا أزرق أخذ يتشكل أمامي حتى اتخذ شكل حيوان جميل، عيناه واسعتان وتبدو فيهما الطيبة، وعلى وجهه يبدو السكون، وينبت من جبهته إلى أعلى قرنان رفيعان لا يلبثان أن يلتقيا معا ويلتوي كلٌّ واحد منهما حول الآخر ليكونا معا جزءا حادا طويلا.

فسألتُه في لهفة: وماذا بعد؟

- أصابني الفزع فخرجت مسرعًا وأنا أجري حتى قابلتك.

لمعت عينا "شابان" وهو يقول:

- ثم فجأة ظهر ذلك الحيوان، تماما كما وصفه، لقد ظهر من خلفه ورأيته بدوري، كان كمن ظهر من العدم وهو يسير في اتجاهنا في هدوء عجيب. فزع "كالاب" حين رأى تلك النظرة على وجهي وفهم الأمر، ثم قام ونظر خلفه بدوره ووقف مشدوها وهو لا يقوى على الكلام، اقترب هذا الحيوان منا في ثقة ثم تجاوزنا ووقف أمام

مدخل البئر. كان "كالاب" يقف متسمرا في مكانه، لكني فهمت الأمر، فقمت وأنا أوجه كلامي إلى ذلك الحيوان وأقول:

- هل تريد من "كالاب" أن يشرب من البئر؟

نظر إليَّ "كالاب" في دهشة، ثم ازدادت دهشته حتى أنه أطلق شهقة فزع حين أومأ هذا الحيوان برأسه، فقمت في حذر وأنا أطلب من "كالاب" أن يتبعني إلى داخل البئر، ودخلنا ودخل وراءنا الحيوان.

كانت "لابا" و"سعدون" يستمعان إلهي في دهشة، ويكتمان أنفاسهما من الإثارة، حتى أن أيًّا منهما لم يقوَ على أن يتفوه بكلمة واحدة، و"شابان" يستكمل كلامه:

- وما أن أصبحنا جميعا بالداخل حتى اقترب ذلك الحيوان من فوهة البئر وانحنى برأسه داخلها ولامس بذلك الجزء الحاد من قرنيه حيث يلتقيان معا الماء في البئر، ثم خرج نور عظيم من قرنيه وغاص في الماء، وفار الماء، ثم تغير لونه إلى الأبيض حتى أنه أصبح يشبه اللبن تماما في لونه وسمكه.

نظر "شابان" إلى "لابا" و"سعدون" في دهشة حقيقية وهو يستطرد:

- لقد صار الماء لبنًا أمام عيني!

سأله "سعدون" في لهفة:

- وماذا حدث بعدها؟

- أخرج الحيوان رأسه من البئر ونظر إلى "كالاب"، فطلبت من "كالاب" أن يشرب منه، فتقدم في بطء ومد يده داخل البئر واغترف من الماء غرفة، رفع يده ليقربها من فمه وقبل أن يشرب نظر إلي في تردد، فأومأت إليه برأسي فشرب الغرفة التي كانت بيده.

ابتسم "شابان" ابتسامة باهتة وهو يستكمل كلامه:

- ولم يتوقف بعدها، لقد أخذ ينهل من ماء البئر في تلذذ ونهم، وما زال ينهل من البئر حتى اختفى الحيوان فجأة، تماما كما ظهر فجأة، وعاد الماء إلى طبيعته وتوقف "كالاب" عن الشرب.

كانا ينظران في رهبة إلى "شابان" الذي أنهى حديثه ثم لاذ بالصمت، وهما لا يدريان ماذا يقولان؛ لذلك فقد طال الصمت حول البئر.

*****

اقتاد الكهنة "كالاب" إلى عمق الكهف، وهو يسير معهم في استسلام تام دون أدنى مقاومة، حتى أصبحوا جميعا داخل غرفة تتوسطها صخرة كبيرة، وعلى سطحها المستوي وُضِعت نصف جمجمة مشابهة لتلك التي رآها مع الكاهن من قبل، وبجوارها وضعت

أوراق نبتة الآلهة العجيبة، وبينما "كالاب" يمسح بعينيه أرجاء المكان دخل كبير الكهنة.

وقف "عرعر" ينظر إلى "كالاب" نظرة تفيض بالشماتة، لكن الأخير بدا متماسكا وهو يبادل نظرته تلك بنظرة تحدٍّ جعلت كبير الكهنة يستشيط غضبا، ويقول بصوت يقطر منه الكره:

- سأقوم بطقوس ذبحك بنفسي، أيها الكافر اللعين.

نظر إليه وهو يردد في خوف حقيقي:

- ذبح!

ثم نظر إلى الصخرة التي تتوسط المكان، فقال كبيرة الكهنة في شماتة واضحة:

- نعم، إنه المذبح.

ثم أطلق ضحكة ساخرة وبرقت عيناه قبل أن يضيف:

- وأنت الذبيحة.

أراد أن يقول أي شيء، إلا أن الخوف ألجم لسانه تماما، وبدا على وجهه التوتر، ثم بدأ جسده يهتز حين اقتاده الكهنة إلى الصخرة وألقوه فوقها، بحيث يكون ظهره ملامس لسطحها ووجهه إلى الأعلى، ثم قال "عرعر" في حزم:

- ثبتوه في إحكام.

ومن فورهم نفذوا أمره، فقيدوه في قوة من قدميه ويديه، كما ثبتوا رأسه بحيث لا يستطيع تحريكها يمينا أو يسارا، حاول "كالاب" أن يميل رأسه ليرى ما كان يفعله "عرعر" لكنه لم يستطع.

فعل "عرعر" كما فعل الكاهن من قبل، فأمسك بنبتة الإله وهو يثنيها فوق بعضها البعض ثم يضعها داخل نصف الجمجمة التي أوقد عليها النار.

لم يستطع "كالاب" أن يرى شيئا مما سبق، لكنه الآن يرى "عرعر" يقترب منه وهو يمسك بتلك العظمة الحادة ثم يدسها في سائل ما، ويتمتم ببعض الكلمات التي لم يستطع "كالاب" أن يفهم منها شيئا، ثم وقف بجانب جسد "كالاب" الممدد فوق المذبح، وهو ما زال يتمتم بينه وبين نفسه.

شعر بالخوف و"عرعر" يكشف صدره ثم يرفع يده الممسكة بالعظمة الحادة ويهبط بها أعلى صدره؛ صرخ بأعلى صوته حين غرس الكاهن تلك العظمة الحادة في الجزء العلوي من صدره بين رقبته وكتفه الأيسر، ثم أخرجها مرة أخرى في حدة وتلذذ.

أخذ "كالاب" يصرخ ويصرخ، وهو يحاول جاهدا أن يتملص من قيوده المحكمة دون جدوى، سال دمه على صدره وجانب جسده، وهنا استقبل كبير الكهنة هذا الدم وجعله ينساب فوق نبتة الإله داخل

نصف الجمجمة، ثم وضعها على النار الموقدة، وأخذ يقلب الخليط حتى جف، وتحول إلى اللون الأسود، وخرج من الجمجمة تلك الرائحة المميزة للأشياء حين تحترق، وهنا أبعدها عن النار وقام بطحنها، ثم صب عليها سائل له رائحة نفاذة، وعندها قام بسرعة وبدون ذرة شفقة بغرس تلك العظمة في نفس المكان أعلى صدر "كالاب" مرة أخرى وشق صدره شقًّا عرضيًّا أسفل رقبته، لم يستطيع كالاب الاحتمال أكثر من ذلك وانهار تماما.

قام الكهنة بفك قيوده وخلعوا عنه ملابسه، ثم دهنوا جسده كله بالخليط المطحون، وفي قسوة ما بعدها قسوة فتح "عرعر" الجرح، ثم صب باقي الخليط بداخله، فانتهت الطقوس وبدا أن "كالاب" قد انتهى معها.

ضحك "عرعر" في شماتة وهو يرى الكهنة يجرون جسد "كالاب" إلى أقصى عمق الكهف، ثم توقفوا أمام جدار بدا أنه نهاية الكهف، وهنا أخذ "عرعر" يردد كلمات غير مفهومة، إلى أن ظهر من العدم فتحة في الجدار، فتحة عجيبة يموج بداخلها ما يشبه سائلًا قرمزيًا اللون، لكنه سائل غريب؛ فهو ثابت داخل فتحته لا ينساب منها، يبدو أقرب إلى شكل الضباب الكثيف الذي يتحرك باستمرار ويشع منه ضوء وردي باهت.

حمل الكهنة قربانهم عاليًا وهموا بقذفه داخل تلك الفتحة قبل أن يصيبهم جميعا الدهشة إن لم يكن الخوف بما فيهم "عرعر" نفسه؛ لقد فتح "كالاب" عينيه ونظر إليهم، فصرخ "عرعر" وقد تملكه الفزع:

- ألقوه داخل البوابة، الآن.

ألقاه الكهنة داخل البوابة بسرعة، فتلاشت البوابة تماما وعاد الحائط كما كان.. تلاشت البوابة وتلاشى معها "كالاب".

* * * *

(٧)

فتح "كالاب" عينيه في صعوبة ليجد نفسه ملقًى على الأرض وحيدا داخل كهف قدس الأقداس، هو نفس الكهف ولكن من دون كهنته، لقد كان الكهف فارغًا تماما إلا منه وضوء أحمر قاني يحيط به، كاد رأسه أن يحترق من شدة التفكير وهو يحاول أن يتذكر ما حدث منذ صرخ "عرعر" على كهنته ليلقوا به مسرعين داخل تلك البوابة العجيبة.

تمتم بينه وبين نفسه:

- نعم، ذلك هو الاسم الذي أطلقه عليها "عرعر" (بوابة)، لكنها في جميع الأحوال بوابة عجيبة.

سرت قشعريرة في جسده وهو يتذكر ما حدث حين لامس جسده لأول مرة ذلك السائل الذي يموج بداخلها، لقد شعر بدغدغة تسري في جسده كله قبل أن يغوص فيها وكأنه يغوص داخل سائل لزج، ثم شعر بأن جسده قد تفتت إلى ما لا يحصى من القطع الصغيرة قبل أن يدخل فيما يشبه السائل الكثيف، وهنا شعر أنه فقد سمعه وبصره بل سيطرته على نفسه كلها، أصبح وقد فقد أحاسيسه بما حوله وجسده يتحول إلى مجرد أجزاء صغيرة تتطاير في مهب الريح دون سيطرة منه عليها، ثم فجأة تلاشى كلُّ شيء وعادت إليه أحاسيسه

دفعة واحدة، وشعور بالسكون يغمر عقله، ثم بدأ جسده يتجمع في نعومة مرة أخرى، لكنه أصبح جسدًا غريبًا تتحرك أجزاؤه ببطء شديد وهي تسبح في الفراغ، بعد أن شعر بأجزاء جسده تتجمع مرة أخرى انتبه إلى أن جسده توقف عن السباحة في الفراغ، وأنه مستلق على ظهره أرضا، ففتح عينيه في بطء لكنهما اصطدمتا بضوء أحمر قاني ينتشر في المكان من حوله.

كان لا يزال ملقى على ظهره، يشعر بآلام في جميع أجزاء جسده وإن كانت آلام جروح صدره هي ما كانت تجعله يطلق التأوهات، ثم بدأ يحرك عينيه يمينا ويسارا بحثا عن أي أحد، لكن المكان كان خاليًا تماما، حاول جاهدا أن يحرك جسده على أمل أن يقف عل قدميه قبل أن يعود أحد الكهنة، لكن جسده كان كمن أصابه الشلل، ثم انتبه إلى أن جسده يطفو فوق الأرضية دون أن يلمسها، والأعجب من ذلك هو أن جسده كان يتموج وباستمرار.

استطاع أخيرًا أن يحرك يديه فشهق شهقة عالية؛ ذلك لأن يديه كانتا تغوصان داخل شَيْءٍ لا يستطيع أن يراه لكنه يشعر به، كأن الهواء أصبح كثيفا، كما كانت حركةُ يديه عجيبةً؛ فقد كانت الواحدة منهما تتحرك في انسيابية ونعومة تاركة خلفها أثرا مرئيا؛ وكأنها تنقسم إلى أيادٍ عدة تظهر على طول مسار حركتها من البداية وحتى تسكن، ثم تلحق باقي صور اليد بتلك الواحدة في النهاية، كان المشهد عجيبًا بحق، حرك قدميه وكان نفس الشيء، مما جعله يحاول جاهدًا

أن يصل إلى ما يعنيه هذا كله، قطع حبل أفكاره صوت همهمات تأتي من بعيد، أرهف سمعه وهو يحاول أن يميز تلك الأصوات، لقد كانت خليط من صوتين أحدهما حاد رفيع والآخر يشبه صوت التجشؤ، كان الصوتان يقتربان منه دون أن يسمع وقع أقدامهما، وكأن صاحبيهما يطفوان فوق الأرض ولا يمشيان عليها، ثم ظهرا أمامه ورآهما وشهق في رعب.

لم تكن ملابسهما السوداء هي سبب رعبه، بل شكلهما، كان لهما الشكل نفسه تقريبا وكأنهما توأمان، ورأس الواحد منهما ضخم جدا بحيث يكاد أن يعادل نصف جسده، مع وجه مخيف يمتلِئُ بالشعر وعينين حمراوين كالدم، ويلتحم بهذا الرأس مباشرة دون رقبة جسد قصير لكنه عريض المنكبين يتدلى منه يدان طويلتان تكاد الواحدة منهما أن تلامس الأرض، ثم ساقان قصيرتان تنتهيان بقدمين كبيرتين. تمنى من كلِّ قلبه أن يكون هذا كله مجرد حلم سيستيقظ منه قريبا، لكنه أيقن أنه لا يحلم خصوصا عندما نظر إليه أحدهما نظرة دهشة، وفي سرعة لطمه على وجهه لطمة قوية جعلته يفقد الوعي على الفور، حمله ذلك الكائن في سهولة ووضعه فوق صخرة مستوية السطح تشبه تلك الواحدة في كهف قدس الأقداس تماما.

بدأ "كالاب" يستعيد وعيه، ومع أنه يشعر بدوار يكتنف رأسه، وبغيبوبة ما زالت تهاجم عقله، إلا أنه استطاع أن يميز وجود ذلك الكائن؛ كائن ثالث يشبه الاثنين الآخرين، إلا أن ثوبه كان قرمزيَ

اللون، وعلى عكسهما فقد كانت له لحية طويلة، ويمسك في يده شيئًا لامعًا حادًا، والذي شعر معه "كالاب" بألم شديد حين غرسه ذلك الكائن في أعلى صدره، ولكن في الناحية الأخرى بين رقبته وكتفه الأيمن، ويشق صدره عرضيًا في نفس المكان الذي شقه "عرعر" سابقا.

صرخ صرخة عالية، فنظر إليه ذلك الكائن في شراسة ثم أطلق حشرجة عجيبة وهو ينظر إلى الاثنين الآخرين ويقول لهما كلمات بلغة غريبة.

بدا عليهما الارتباك وأحدهما ينساب خارجا فوق الأرض في سرعة، قبل أن يعود وهو يحمل ما يشبه الإناء الصغير، وفي سهولة رفع ذلك الكائن "كالاب" من قدميه عاليا، بحيث يكون رأسه إلى أسفل ليجعل الدم يسيل من جرحه بداخل ذلك الإناء، ومع كثرة ما فقده من دم فقد وعيه مرة أخرى.

وبعد أن أخذوا دمه كله تقريبا وهمدت حركته تماما، ألقاه ذلك الكائن في لا مبالاة وبغلظة شديدة، وهو يقول للآخرَين كلمات ما، ثم تركهما، وذهب حاملا معه الإناء الذي يحوي دم "كالاب"، وهنا حمل أحدهما جسد "كالاب" وخرج به من الكهف.

كان الكهف يقبع عاليا بقرب قمة الجبل، تسلقه ذلك الكائن في خفة واضحة وهو يحمل "كالاب" بيده الطويلة في سهولة، وحين بلغ

القمة ألقى ذلك الكائن "كالاب" في غلظة من الناحية الأخرى للجبل، في اتجاه القاع.

في البداية لم يشعر "كالاب" الفاقد الوعي بجسده وهو يتدحرج في سرعة من أعلى الجبل في اتجاه الهوة السحيقة في أسفله، لكنه وبرغم جروحه وبرغم تلك الدماء الكثيرة التي فقدها قد عاد إليه وعيه مرة واحدة، لا أحد يدري كيف حدث ذلك، أو كيف لم يمت حتى الآن؟ على الأقل رعبا.

أخذ نفسا عميقا يختلط بشهقة، وكأنما عادت إليه روحه في هذه اللحظة لتسكن جسده؛ ذلك الجسد الذي يتدحرج بتلك السرعة العالية، ثم فتح عينيه ووقع قلبه في قدميه حين رأى تلك الهوة السحيقة التي تموج بالسواد من أسفله، وهو يتجه إليها في سرعة متزايدة.

كان السواد يدور بداخل الهوة على شكل دوامة كبيرة في مشهد يبث الخوف في القلوب؛ لذا فقد تملكه الرعب وهو يكاد أن يسقط فيها، وأخذ يمد يديه هنا وهناك على أمل أن يجد أيَّ شيء يتعلق به، لكن هيهات لقد تدحرج جسده حتى غاص بداخلها.

شعر بجسده يتمزق من أثر السقطة، وبأنفاسه تتسارع، ثم انتبه إلى تلك السخونة العالية التي تكاد تشوي وجهه وتذيب جلده، مع ذلك الصفير المتصل الغريب الذي تطلقه تلك الرياح السوداء والذي يكاد أن يصم أذنيه صمًا، والظلام يحيط به من كافة الاتجاهات، حتى أنه لا

يكاد يرى شيئا، ثم شعر بحركة قوية من حوله ففتح عينيه، واستطاع أن يلمح كائنات سوداء تحيط به من كلِّ صوب.. كاد الخوف أن يقتلع قلبه عندما وجد تلك الكائنات السوداء وقد أوشكت أن تبلغه، وأيقن أنها النهاية لاريب، عرف اليأس طريقه إليه واستولى عليه، فأغمض عينيه وهو يتساءل بينه وبين نفسه، "لماذا هذا كله؟ هل هذا هو عقاب الآلهة؟! هل هو حقا كافر؟!"

لكنه ما زال عند رأيه، كيف لا يرضى الإله إلا بالدم؟ هل هو حق إله؟.. وفي غمرة شعوره باليأس فتح عينيه رغما عنه عندما غمرهما ذلك النور الأزرق العجيب، ورآه وهو يقف بجواره، نفس الحيوان والنور يشع من جسده؛ وما إن رأته تلك المخلوقات حتى تلاشت على الفور، فقد غمر الهوة نوره حتى أن السواد نفسه كاد أن ينقشع.

فرح عندما رآه، وتمنى لو يستطيع أن يتحدث معه ليطلب منه أن يعيده إلى "لابا" و"سعدون" و"شابان"، وحتى إلى أمه التي تركته رضيعًا، لكن وقبل أن يقول أي شيء، بدأ نور الحيوان يتلاشى رويدا رويدا والحيوان نفسه يختفي، وفي هدوء ومن خلف "كالاب" الملقى على ظهره اقترب كائن آخر منه، كائن تبدو على وجهه البراءة، التي لم تشفع له عند "كالاب" وقد شعر بالخوف منه، لا هي ولا وجه الطفولي برأسه الكبير بيضاوي الشكل، والذي لا يتناسب مع جسده

الصغير ولا مع يديه وقدميه، لقد كانتا ومع صغر حجمهما تشبهان أعضاء طفل صغير، وضع ذلك الكائن يديه على رأس "كالاب"، فحاول جاهدا أن ينتفض وأن يزيح تلك اليد بعيدا عن رأسه إلا أنه لم يجد القوة ليفعلها.

استسلم له وهو يشعر بذلك الشيء البارد ينسل إلى داخل عقله فأغمض عينيه وهو يشعر بهدوء يسري في قلبه، وهنا ألقى عليه ذلك الكائن شيئا عجيبا يشبه التراب اللامع فتفتت جسد كالاب مرة أخرى، فحمل الكائن جزيئات جسده داخل مجال صنعه هو بيده وغاص به في الأرض في مشهد عجيب، فقد كان جسد "كالاب" متحللا كله إلى جزيئات صغيرة لكنها في الوقت نفسه ما زالت ترتبط ببعضها.

كان يغوص به في الأرض في اتجاه عمودي إلى الأسفل قبل أن يغير مساره ليسير به داخل الأرض في اتجاه أفقي ثم توقف وصعد به إلى الأعلى مرة أخرى حتى بلغ السطح، واخترقه، وعلى سطح تلك الأرض، وفي نقطة بعيدة عن الجبل أخذ جسد "كالاب" يتكثف ويتجمع مرة أخرى وهو يتموج في استمرار بلا توقف، وهنا تمتم ذلك الكائن بكلمات جعلت تموج جسد "كالاب" يزداد ثم يتشكل ليشبه جسد ذلك الكائن نفسه، ثم ألقى عليه ذلك الكائن ما يشبه الرداء وحمله واختفى به.

*****

فتح "كالاب" عينيه وأدهشه ذلك الشعور بالراحة والهدوء الذي يسري في جسده ونفسه، راحة وهدوء لم يشعر بمثلهما من قبل، لقد كان مستلقيًا فوق فراش وثير وعجيب؛ فهو يشعر النائم وكأنه يستلقي بجسده فوق سطح الماء بحيث يغوص جسده فيه قليلا. لم يتحرك أو يبد أي فعل يدل على أنه قد استيقظ، ومع ذلك بمجرد أن فتح عينيه شعر بتلك اليد توضع على رأسه وبرودة تسري داخل عقله.. مرت بضع لحظات ويد ذلك الكائن تبث ما يشبه البرودة داخل عقله، وأخيرا أزاح الكائن يده وهو يقول بلغته العجيبة وبصوت حاد متقطع:

- أنت إذًا آخر قربان أتت به البوابة إلى وادينا؟

انعقد جبين "كالاب" وبدت على وجهه الدهشة عندما فهم كلام الكائن، لكنه تجاوز هذا الأمر قبل أن يلتفت ناحية الكائن ويقول في حيرة:

- أين أنا؟

خرجت من فمه شهقة عالية، إذ انتبه أنه يتحدث بنفس لغة الكائن، الذي تجاهل دهشة كما تجاهل سؤاله وهو يقول في همة وبصوته الحاد المتقطع المميز:

- لقد عالجت جميع جروحك.

تحسس "كالاب" جروحه فوجدها قد التأمت بالفعل، بل لم يجد لها أي أثر وكأنها لم تحدث من الأساس، ثم شعر بالدهشة وهو يتطلع إلي ذلك الكائن ويقول ببطء وبصوت متقطع:

- لكنك تبدو مختلفا عن الثلاثة الذين قابلتهم في الكهف.

ذلك لأن رأس ذلك الكائن ووجهه أملسان تماما لا يظهر فيهما أي أثر للشعر، ورأسه نفسه يشبه البيضة الكبيرة، له وجه طفولي يبعث على الود، أما الجسد فقد كان صغير الحجم وكذلك بدت يداه ورجلاه، لكنهم وفي النهاية كانوا جميعًا متناسقين مع حجمه الصغير، والعجيب أن ذلك الجسد كان يتموج بلا توقف كأنه صورة منعكسة على سطح ماء تحركه الرياح باستمرار، قاطع الكائن أفكار "كالاب" وهو يمد يده اليمنى ليضعها في رفق فوق كتفه الأيسر قبل أن يقول مبتسما:

- اسمي "فيران"، وأنت ما اسمك؟

ردَّ في ودٍّ وهو يمده اليمنى إليه في آلية:

- أنا "كالاب".

بدت على وجه "فيران" ما يشبه الابتسامة وهو يأخذ يده الممدودة ويضعها فوق كتفه هو ثم يومِئ له برأسه، ففهم "كالاب" أن هذه هي طريقة تحيتهم.

قال "فيران" بصوته الحاد:

- المهم الآن هو أن نبقِي على هيئتك الجديدة بصورة دائمة.

ثم ابتسم تلك الابتسامة مرة أخرى وهو ينظر إلى هِيْئَة "كالاب" أمامه قبل أن يستكمل كلامه:

- حتى تبدو مثلنا على الدوام.

انتبه "كالاب" في هذه اللحظة إلى يديه وقدميه الصغار، ثم رفع يده يتحسس رأسه التي كانت ملساء تماما وأدرك ماذا قصد "فيران" بهيئته الجديدة، لكن فجأة حدث ذلك الأمر العجيب، لقد بدأت يداه في الاستطالة ثم بدأ جسده كله يعود إلى طبيعته، وفي سرعة ألقى "فيران" عليه بعض الكلمات فعاد جسده إلى هيئته الجديدة مرة أخرى، واستقر عليها، حتى أصبح صورة طبق الأصل من "فيران".

نظر إليه "كالاب" وبصوت خرج حادا مميزا، يشبه صوت "فيران"، سأله:

- ولكن لماذا؟

- لأنهم إذا رأوك على هيئتك الحقيقية فسيقتلونك.

وقبل أن يسأله عن هوية هؤلاء الذين يريدون قتله، انتبه إلى أن جسده يتموج في سرعة، بل يتغير حجمه ولونه، فنظر إليه "فيران" وهو يقول:

- سأعلمك كيف تتحكم في مشاعرك حتى لا يظهر تأثيرها عليك بهذا الشكل الذي يفَضح ما بداخلك.

- أين أنا، يا "فيران"؟

أجابه في سرعة وكأنه كان يتوقع السؤال:

- أنت في وادي سيليان.

ثم صمت بعدها وهو ينتقي كلامه قبل أن يستكمل في بطء وحذر:

- داخل شق عميقٍ في الأرض.. هو جزء من الأرض السابعة، حيث يعيش الكثير من علماء الجن.

فتح عينيه عن آخرهما، وأسقط في يديه، فلم ينطق بأية كلمة وإن بدا على وجهه الاشمئزاز. نظر إليه "فيران" في استنكار بادٍ وقال:

- نحن مخلوقات مثلنا مثل البشر!

قاطعه وهو يقول في حيرة:

- لكنكم تكرهون البشر، بل تخيفوننا وتحاولون دائما أن تطردونا من أرضنا.

صمت وكأنه يتذكر شيئا ما، وبدا على وجهه الخوف وهو يستكمل كلامه:

- وأحيانا تتلبسون الحيوانات وتطاردوننا لتقتلونا!

قاطعه "فيران" وهو يقول بصوت حاد:

- هيييييي هيييييي، من قال لك هذا الكلام العجيب؟!

لاحظ "كالاب" أن جسد "فيران" يتموج بسرعة، ويتغير حجمه ولونه هو الآخر، لكنه تجاوز ذلك الأمر وكتم خوفه وهو يقول:

- هناك الكثير من الحكايات التي يطلقها أهل القرية، كما أن الكهنة يخبروننا ذلك في الصلاة.

قام "فيران" من مكانه وهو يقول في استنكار:

- الكهنة! الكهنة وأمثالهم هم من يطلبون من الجن العون طوال الوقت، يطلبون منا أن نقوم لهم بالعديد من الأشياء.

صمت "فيران" وهو ينظر إلى الأرض في محاولة أن يستعيد هدوءه قبل أن يستكمل كلامه:

- على كلٍّ فنحن مثلكم فينا الخير، كما فينا الشر.

حاول "كالاب" في هذه اللحظة أن يغادر الفراش ويقف على قدميه، غمرته الدهشة عنما وجد نفسه يقف في الهواء، فشعر بعدم

اتزان ومن ثم وقع، ثم قام ووقع مرة أخرى، كان كطفل صغير يتحسس للمرة الأولى خطاه، وفي صعوبة عاد إلى الفراش مرة أخرى، وجلس ليغوص به الفراش، ثم نظر في قلق ناحية "فيران" وهو يلهث قبل أن يسأله:

- ماذا يحدث لي؟!

- لم يحدث شيْءٌ غير متوقع، ولولا أني قد غيرت شكلك لحدث لك الكثير.

صمت وهو ينظر إلى "كالاب" في شفقة حقيقية قبل أن يستكمل كلامه ويقول:

- ماذا كنت تظن؟! أنت الآن في عالم يختلف عن عالمك كثيرا، يختلف في مجاله وهوائِه.

صمت ليحاول أن يجد الكلمات المناسبة لكي يعبر بها عما يجول في عقله قبل أن يضيف:

- إن أجسامنا خفيفة في ذاتها، ولأن أجزاء أجسامنا مفككة بطبعها فنحن نغير من حجمنا في سهولة، نستطيع أن نتمدد لنشغل حيزًا كبيرًا كما نستطيع أن ننكمش لنشغل حيزًا أقل.. أجسامنا قابلة أن تتشكل وأن يتغير حجمها.

كان "كالاب" يستمع له في إنصات دون أن يصدر عنه أية كلمة، و"فيران" يختم كلامه ويقول:

- لذلك تجد أن المجال الذي نحيا فيه كثيف، حتى يتسنى لنا أن نحافظ على هيئاتنا ونتحكم فيها، لأنه إذا فقد أحدنا - لأي سبب ما - التحكم في حركات جسمه يتشتت ذلك الجسم وتصبح حركاته مستمرة ولا إرادية، ومن ثم يتوه إلى ما لا نهاية.

صمت قليلا قبل أن يضيف:

- لقد حاول بعض الجان العيش في مجال خفيف كالمجال الذي يحيط بالإنسان لكن معظمهم قد فشلوا وتشتت أجسامهم، ومع ذلك فقد نجح القليل في السيطرة عليها، وبالتدريج تعلموا كيف يتنقلون بين العالمين.

لم يفهم "كالاب" معظم ما سمع إلا أنه قال:

- أتقصد مثل ذلك الشعور وأنا أعبر البوابة؟

- تقريبًا.

وساد الصمت بعدها.

لاحظ "كالاب" أن تموج جسده بدأ يهدأ، فقام وحاول أن يمشي ونجح هذه المرة، تابعه "فيران" ببصره قبل أن يبتسم ويقول:

- بهدُوْءٍ يا "كالاب".

ما زال يحاول جاهدًا أن يتحرك من حوله عندما قال "فيران" في تردد وحذر:

- هل تعلم، أنك أول إنسي يستطيع أن يحيا في عالمنا لكل هذا الوقت، بل يتكلم ويتحرك مثلما تفعل أنت الآن.

توقف فجأة وكاد أن يقع إلا أنه استطاع السيطرة على جسده، ثم نظر إلى "فيران" في صمت وهو لا يدري ماذا يقول، وبعد مرور لحظات قال في تردد:

- ربما هو ماء البئر الذي تحول إلى لبن وشربت منه! أو ربما هو ذلك الحيوان الذي يشع جسده بالنور!

قاطعه "فيران" وهو يقول في لهفة:

- أي حيوان؟!

* * * *

(٨)

قصَّ عليه "كالاب" القصة كلها، من البداية وحتى شرب من ماء البئر إلى أن أصبح هو القربان بدلا من سعدون.. نظر إليه "فيران" وأطال النظر، وهو يفكر في عمق، مما أتاح لـ"كالاب" أن يتفحص وجهه أكثر من ذلك القرب، وكاد أن يبتسم رغما عنه، ذلك لأن وجهه يبدو عجيبًا بحق؛ فمع فمه الصغير وعينيه الواسعتين وأنفه الدقيق ورأسه ووجهه الأملسين، كانت رأسه تبدو كرأس رضيع صغير لكنه رضيع مفكر ومتكلم.

قطع "فيران" تأمله وهو يقول:

- إنه روح الجبل!

نظر إليه في دهشة وهو يقول:

- روح ماذا؟!

- روح الجبل، يا "كالاب"، روح من الأرواح القديمة على الأرض والتي حكى لنا آباؤنا عنها الكثير، لم يرها ويتحدث معها منا إلا القليل، وبالتدريج نسينا أمرها، بل ظن بعضنا أنها مجرد أساطير، لكن..

- لكن ماذا؟!

أجابه "فيران" في حيرة:

- لكنه ظهر لي، والغريب أن ذلك قد حدث بالتزامن مع ظهوره لك، وهو من طلب مني بعد ذلك أن أذهب إليك هناك في داخل الهوة أسفل الجبل، وأن أقدم إليك يد العون.

بدت الحيرة أكثر على صوته وهو يضيف:

- عندما حملتك وغصت بك في الأرض أسفل الجبل، لقد قطعت بك مسافة داخل الأرض هي الأطول لي على الإطلاق قبل أن أعود بك إلى السطح مرة أخرى.

ساد الصمت مرة أخرى، وبعد لحظات من الصمت، استطرد "فيران":

- لقد كان كلام روح الجبل أشبه بالأمر الذي لم أستطِع مخالفته.

ثم نظر إلى "كالاب" وهو يقول:

- نعم، ذلك الحيوان المنير الذي ظهر لك هو روح الجبل.

لم يدرِ "فيران" لماذا أحس فجأة بكل ذلك الخوف والعطف على "كالاب"، ودار في عقله الكثير من الأسئلة، هل يشفق عليه؟ أم هو كلام الروح قد تحول إلى مشاعر عطف وحب تجاهه؟ أم هو شعور الأبوة الذي افتقده منذ موت زوجته وابنه في ذلك اليوم؟ قطع "كالاب" حبل أفكاره وهو يساله:

- من هم هؤلاء الكائنات الأخرى؟

أجابه "فيران" في اقتضاب:

- الزوميون.

قطب "كالاب" جبينه ولم ينطق بكلمة واحدة، مما جعل "فيران" يكمل:

- منذ ما يقارب الألف عام، جاء الزوميون إلى وادينا يطلبون أن نساعدهم بعلومنا في أمر ما، استقبلهم نفر من علمائنا، لكن ما طلبه كبيرهم "زوما" كان عجيبًا بحق.

شرد لحظات كأنه يستحضر ما حدث، أو كأنه ذهب بعقله إلى الماضي السحيق، لكنه فجأة نظر إلى "كالاب" وهو يكمل:

- قال البعض إن "زوما" هو ابن من أبناء الشيطان الأكبر، والبعض الآخر قال بل هو الشيطان نفسه.

ثم أضاف:

- لقد طلب أن يصبح علماء الوادي ملك يمينه وطوع أمره، وأن يسخروا علومهم جميعا لخدمة أهدافه، وإلا سيحل عليهم العذاب، وعنما سأله أحد العلماء عن هدفه من وراء هذا كله ضحك ضحكة عالية هزت جنبات وادينا كله، ثم قال جملته الشهيرة والتي أصبحت فيما بعد الهدف الأسمى الذي يعمل الوادي كله من أجل تحقيقه.

صمت بعدها وأطل من وجهه الحزن، ثم شرد ببصره بعيدا، نظر إليه وهو يحثه على استكمال كلامه مما جعل "فيران" ينتبه، فيعود ويلتفت إليه ويقول:

- لقد قال بصوت جهوري سمعه أهل الوادي: إن هدفه هو التجسد وأن يصبح الإله المعبود هناك.

نظر إليه في قلق ثم سأله:

- أين، يا "فيران"؟ أين؟

وكما توقع، أجابه "فيران" وهو ينظر إلى أعلى ويقول:

- على سطح الأرض.

ساد الصمت بعدها إلا أن "فيران" عاد يكمل:

- نظر إليه العالم في استنكار وهو يسأله في امتعاض: أين تريد أن تتجسد؟. أجابه "زوما" وهو يشير بإصبعه إلى أعلى ويقول: بين البشر، على سطح الأرض.

- وهل وافقوا على طلبه أم رفضوه؟

فتح "فيران" فمه الصغير وهو يقول في حزن:

- رفضوه بالطبع.

قال "كالاب" في سرعة:

- لقد فعلوا الصواب.

ابتسم "فيران" ابتسامة ساخرة وهو يقول في استنكار:

- نعم لقد فعلوا الصواب، وكانت النتيجة أن استعبد أرواحهم، لقد استخدم معهم السحر القديم، ذلك السحر الممنوع والذي يستعبد أرواح الجان، وبعد أن سيطر على أرواح بعضهم قال "زوما" في صوت عالٍ قوي رجَّ جنبات الوادي: "من اليوم أنا السيد وأنتم عبيدي، من اليوم أنا الملك وأنت خدامي، ولكم حرية الاختيار إما الطاعة فأرضى عنكم أو العصيان فأستعبد أرواحكم".

نطق "فيران" الكلام الأخير والدموع تسيل من عينيه في صمت، فنظر "كالاب" بدهشة إلى دموعه الغريبة والتي تتبخر وتتلاشى بمجرد أن تخرج من عينيه، لكن ما لبثت نظرة الدهشة أن تحولت إلى نظرة عطف.

طال الصمت إلى أن قطعه "فيران" قائلا:

- ومن يومها وسكان الوادي يطيعونه هو وأتباعه وجنوده.

تغيرت نبرته إلى جدية واضحة، مما جعل "كالاب" يشعر بالدهشة من سرعة تحول مشاعر "فيران" وهو يقول:

- نحن نعلم الكثير عن تكوين الأرض، عن صخورها والطبقات في جوفها، وعن المعادن وأنواعها وخصائص كلِّ معدن

منها، وعن سطحها وجبالها ووديانها ومائها، علم الكيمياء وخصائص العناصر وتركيبها، وعن السبائك وكيفية تصنيعها وعلوم الطب بأنواعها، والسحر جميعه ما عدا السحر القديم.

بدأ "كالاب" يفتح فاه عن آخره؛ فهو لم يكن يعرف شيئًا عن أي من هذه العلوم، مما جعل "فيران" يبتسم في ود وهو يقول:

- لا تقلق، إن كتب لك أن تستمر حياتك معنا سأعلمك كلَّ هذه العلوم.

نظر إليه نظرة استنكار قبل أن يبتسم ويقول:

- وهل أستطيع أن أتعلمها حقا؟! إنها تبدو كثيرة وصعبة، أعتقد أنها تحتاج إلى سنين كثيرة لأستوعبها.

نظر إليه "فيران" وهو يقول بلهجة ذات مغزى:

- اطمئن، الوقت في عالمنا يختلف عن الوقت عند البشر، وأنت قد تحيا حياتك كلها هنا، بلا عودة.

نطق الجزء الأخير في شفقة واضحة، و"كالاب" ينظر إليه بعينين امتلأتا بالدموع، فوقف "فيران" فجأة، وسار تجاهه وهو يقول في همة واضحة:

- هل تثق بي؟

- نعم أثق بك.

- أخبرني، ماذا ترى من حولك؟

انتبه "كالاب" إلى أنه منذ أن استيقظ لا يرى إلا الضباب الذي يحيط به من كلِّ صوب، نظر إلى الفراش نفسه فلم يره، لقد كان يستطيع أن يحس به فقط، كلُّ ما كان يراه هو "فيران" ولا شيء معه، ابتسم الأخير وهو يقول بلهجة غامضة:

- أغمض عينيك.

أغمض عينيه، وشعر بيد "فيران" وهي توضع عليهما، وسمعه يتمتم بكلمات غير واضحة، ثم وضعها مكان أذنيه ثم على رأسه، وبعد فترة أبعد يده عنه وهو يقول:

- افتح عينيك.

فتح "كالاب" عينيه ثم أطلق شهقة عالية.

*****

لقد شعر بمجرد أن وضع "فيران" يده على عينيه، وكأن هناك غشاءً ما قد تمزق بداخلهما، وحين انتهى من أذنيه سمع صوتًا منخفضًا يشبه صوت الصفير المتصل، ثم شم رائحة زكية لم يشم مثلها من قبل، لكن المفاجأة الحقيقية كانت حين فتح عينيه، في البداية رأى ما يشبه السماء من فوقه وهو يسبح في الفراغ، ثم لم تلبث عيناه أن تكيفت مع الوضع واتضحت له الرؤيا، رأى نفسه يجلس هو

و"فيران" على كرسيين وثيرين من مادة لينة داخل بيت كروي جدرانه زجاجية شفافة، استطاع معها أن يرى ما بالخارج، وقف ومشي في حذر حتى لامس سطح الجدار فرأى ما بالخارج بوضوح، وصوت الصفير لا ينقطع أبدا.

لقد كان البيت يقبع في مكان عال مرتكزا على شيء ما، وعن يمينه ويساره توجد مئات البيوت المشابهة، عدد من الكرات الشفافة، وشهق "كالاب"؛ إذ بدا له المنظر كأحد الأشجار التي رآها في القسم الخاص بالزراعة في قريته، كشجرة ضخمة والبيوت نفسها هي الثمار، نظر إلى أسفل فرأى أرض رمادية لامعة، وأدهشه ذلك الشيء الذي يلتف حول نفسه ويربط بين البيت وتلك الأرض الرمادية، وفهم أن ذلك الشيء هو ما يستخدمونه في الصعود والهبوط إلى البيوت.

طلب منه "فيران" أن يعود لمجلسه، فعاد وجلس على كرسيه، ثم لاحظ أن "فيران" يمسك في يده ما يشبه القلم الذي يخط به فوق لوح لامع، ثم قال:

- اقترب أكثر لترى جيدا.

اقترب برأسه من اللوح فرأى ما يشبه الجبلين مرسومين على سطحه، و"فيران" يكمل:

- إن واديَ سيليان يبدو على شكل منحنى مُقعر.

كان يتكلم وهو يخط بالقلم على اللوح خطًا منحنيًا إلى أسفل يصل بين الجبلين، ثم أضاف:

- يحيط به هذان الجبلان عن اليمين والشمال، والأرض كلها مصنوعة من معدن يسمى الزئبق.

ثم أضاف بصوت خافت:

- هو في عالمنا صلب بينما في عالمكم تجده شبه سائل يتنقل ويقفز لكنه لا يسيل.

علا صوته وهو يضيف:

- والزئبق في عالمنا هو ما يخلق لنا المجال؛ كي تتماسك أجزاء الجسم معا ليصبح ثابتا كما يمنع عنه التشتت، لذلك فهو يحيط بنا على هذا الشكل المقعر.

كان "كالاب" يفتح فاه في دهشة وهو لا يدري شيئا مما يقال، فنظر إليه "فيران" وهو يقول مبتسما:

-لا تقلق، سأعلمك كلَّ شيء.

ثم استطرد:

- والبيوت نفسها مصنوعة من مادة شفافة، وهذه المادة التي تجلس عليها هي الإسفنج البري...

أخذ يشرح له المكان وأسماء الأشياء إلا أن "كالاب" بدا غير مهتم بكلامه هذا، وقد لفت نظره شيء ما جعله يقاطعه وهو يسأله:

- لكن لماذا يتموج جسدك ويتغير حجمه بالرغم من وجود الزئبق؟

نظر إليه "فيران" نظرة إعجاب وابتسم وهو يقول:

- لقد مهد لنا القدماء الوادي؛ كي نعيش في قاعه حيث يكون تأثير الزئبق أقوى ما يكون، لكن بعد أن سيطر عليه الزوميون سكنوا هم القاع، وأبقونا في الأماكن العالية ليضمنوا أن يبقى أمر ثبات أجسادنا يشغلنا باقي اليوم بعد أن نعود من العمل في مناجمهم ليلا، كما ألقوا ذلك النوع من السحر الذي لا يعمل إلا على ارتفاع ما من سطح الأرض؛ ليؤثر فينا أثناء وجودنا في البيوت.

أراد "كالاب" أن يسأله عن معنى كلمة مَنْجم أو عن طبيعة ذلك السحر لكن "فيران" استوقفه بيده وهو يقول:

- كلٌّ في حينه.

ثم استكمل كلامه:

- وبعد أن ينتهي السهل المقعر، ستجد الممر، حيث لا يوجد زئبق، ولكن مادة عجيبة أحضرها معهم الزوميون وصنعوا منها الممر نفسه.

شرد ببصره قبل أن يستكمل كلامه ويقول بلهجة عجيبة:

- وهو مكان يحلو للمغامرين والمردة أن يذهبوا إليه، إن الزوميين أنفسهم هم من يستخدمونه معظم الوقت.

ثم أضاف:

- إن الذهاب إلى الممر في حد ذاته مغامرة لنا - معشر الجان - ؛ ذلك لأننا حين نكون هناك فإن أجسامنا تظل تتمدد وتنضغط باستمرار حتى نكاد أن نفقد السيطرة عليها، ولذلك فإننا نستخدم النفق لنصل إلى مكان العمل بدلا من المرور عبر الممر.

صمت وطال صمته، وهو ينظر إلى "كالاب" نظرة تأمل قبل أن يقول:

- وهناك داخل الممر يكون للجن القدرة على رؤية البشر والاتصال بهم عبر مجال خاص.

نظر إليه "كالاب" في دهشة لم تمنعه أن يسأل في سرعة:

- وهل يمكن للبشر أن يروهم أيضا؟

- إنها قدرة لا يملكها كلُّ البشر، فقط من كانت روحه خفيفة بطبعها. المهم أن في داخل هذا الممر تقع معظم الأحداث المشتركة بين الجن والبشر، فمنهم من يعشق ويحب، أو يغوي ويضل، أو يخوف ويضلل، وهناك يكون الاتصال والطلبات والسحر.

ثم استطرد، وقد بدا على وجهه الضيق:

- هو كالبرزخ بين العالمين، وللأسف، فمن خلال الممر يستطيع بعض الجان وبفضل السحر من التشكل على الأشياء المادية في عالم الإنس.

صمت قليلا ثم قال:

- وفي نهاية الممر، يقع الجبل حيث الكهف والبوابة التي أتيت أنت منها، وخلف الجبل هناك أكلة القرابين يسكنون الهوة أسفله، وهم الكائنات التي رأيتها والتي كانت على وشك أن تلتهمك.

تذكر "كالاب" عندما سقط في الهوة، لقد كانت تحيط به العظام البشرية من جميع الجهات.

علا هتاف مفاجئ قطع أفكاره وصوت أجش يقول:

- لقد تجسد، لقد تجسد!

جاوب هتافه أصوات عديدة وهم يهتفون في نغمة واحدة قوية عالية، كادت معها البيوت أن تنفجر من حولهم وهم يقولون:

- هاااااام هاااااام.

عاد الصوت الأول يقول:

- لقد أصبح في الأرض إلهًا.

وهم يردون عليه في نغمة واحدة:

- هووووووم هووووووم.

ترك "فيران" جسده المنهار يقع على الكرسي في قوة، و"كالاب" ينظر إليه في حيرة قبل أن يسأله في دهشة:

- من الذي تجسد؟ وأين تجسد؟

نظر إليه "فيران" والدموع تسيل من عينيه في صمت وهو يقول:

- لقد تجسد "زوما" على الأرض في قريتك، وتلبس تمثال الإله الأكبر هناك.

قال "كالاب" في امتعاض:

- هل تقصد تمثال الإله (زولا)؟

- نعم، إن (زولا) هو نفسه "زوما"

قال "كالاب" في حدَّة:

- لكن لماذا؟ أنت تقول إن بعض الجن يستطيعون تلبس الأجساد من خلال الممر، ويظهرون في عالمنا بالفعل، فلماذا يفعل "زوما" كلَّ هذا طوال ألف سنة؟ ماذا كان ينتظر؟ ولماذا القرابين والتماثيل؟ لماذا الدماء والقتل؟

انتابته حالة من الهياج قبل أن ينظر إلى "فيران" ويقول في حدة:

- هل هناك آلهة حقيقية؟ أم جميعهم أصنام زائفون كـ"زوما"؟ أو (زولا) كما يسمي نفسه هناك...

نظر "كالاب" إلى أعلى وهو يستطرد:

- على الأرض.

نظر إليه "فيران" في شفقة، ثم بدأ يتمتم بينه وبين نفسه:

- لابد أن دم "كالاب" هو ما أتاح له التجسد هناك، نعم لقد تجسد في الوقت نفسه تقريبًا الذي انتقل فيه إلى عالمنا، لأول مرة يستطيع فيها إنسان أن يحيا في عالم الجان، أي عبث هذا؟!

قاطعه "كالاب" وهو يسأله في حدة:

- أجبني يا "فيران"، هل توجد آلهة حقيقية؟

- نعم، هناك الإله الواحد خالق كلِّ شيء، رب الأرباب وملك الأرض والسماء.

بدا على "فيران" الهدوء وهو يستكمل كلامه:

- في قديم الزمان جاءنا أحد الأنبياء، طلب منا أن نؤمن بالإله الواحد، ونترك عبادة الشيطان وجنوده، ونترك عبادة أنفسنا كذلك.

بدا على وجه "فيران" الحزن مرة أخرى وهو يستطرد:

- لقد كنا نعبد صفاتنا، كان القوي منا يعبد قوته، والعالم يعبد علمه، بينما المستضعفون فينا ذهبوا إلى عبادة قوى الظلام التي يمثلها الشيطان، لكن منا من آمن بالإله الواحد خالق كلِّ شيء؛ خالق الأرواح القديمة مثل روح الجبل.

كان "كالاب" ينظر إليه في حيرة وهو يردف:

- جاءنا نبي مثل ذلك النبي الذي جاءكم والذي أخبرك عنه "شابان" هذا، وكما أن منكم من اختار الإيمان به ومنكم من كفر، كذلك فعلنا.

قال "كالاب" في حيرة:

- لكن لماذا القرابين؟ ولماذا يحاول "زوما" طوال ألف سنة أن يتجسد هكذا؟

* * * *

(٩)

همَّ "فيران" أن يقول شيئا ما، لكن فجأة دوت صافرة طويلة حادة، فقام من مكانه في عجالة وهو يقول لـ"كالاب":

- أسرع، لقد حان موعد العمل عند الشق العميق.

دار في خلده ألف سؤال، لكن "فيران" لم يعطه فرصة الكلام، وهو يهبط الدرج الدائري خارج بيته مسرعا إلى السهل، وهو يوجه كلامه إلى "كالاب" الذي يحاول جاهدا اللحاق به، ويقول في جدية واضحة:

- أريد منك الثبات، وألا تتعجل في الكلام. إذا سألك أحدهم من أنت، تقول: أنا "فيرن"، قريب "فيران" من ناحية الأم. وتخبرهم أنني من طلب منك المجيء حتى تساعدني في بعض الأعمال، وأنك سوف تقيم معي طوال فترة وجودك هنا.

كان "فيران" يتحدث في سرعة، ويتحرك في سرعة أكبر، فلم يلاحظ أن "كالاب" لم يعد يسير خلفه، وبعد لحظات التفت إليه ليجده واقعا على الأرض هناك، فرجع إليه مسرعا وهو يقول:

- إنه خطئي، لم أحذرك، كلما تهبط مقتربا من القاع كلما ازداد المجال من حولك كثافة، ومن ثَمَّ تكون الحركة داخله أثقل وأصعب، وعليه فلا بد لك أن تبذل جهدا أكبر لكي تتحرك.

هز له "كالاب" رأسه وهو يتمتم في سخرية:

- لقد لاحظت ذلك.

مد له يده يساعده على النهوض، واستكملا طريقهما. لاحظ أن "فيران" أبطأ من سرعة حركته بعد الذي حدث، كما أنه بدأ يتعود على الأمر بالتدريج، ثم طرأ على رأسه سؤال جعله يشعر بالحيرة وهو يسأله:

- لماذا لم تتركني في البيت وتذهب وحدك إلى الشق بدلا من هذا القلق كله؟

أجابه دون أن ينظر إليه:

- لأن جنودهم يتفقدون البيوت باستمرار، بعد إطلاق الصافرة، وينظرون عبر جدرانها الشفافة ليروا إن كان أحدهم ما زال في الداخل.

توقف فجأة وهو يلتفت إلى "كالاب" ويستكمل كلامه:

- والويل كلّ الويل لمن يجدونه مازال في بيته.

بدأ سكان الوادي في الظهور وهم يحيون "فيران" تلك التحية العجيبة، فقد كان كلٌّ منهم يرفع يديه الاثنتين عاليا في فرحة للآخر. نظر "فيران" إلى "كالاب"، ففهم الأمر، وأخذ يرفع يديه مثلهم وهو

يتمتم بينه وبين نفسه: ملامسة الكتف هي التحية عن قرب، أما عن بعد فيجب رفع اليدين معا هكذا ورفع يديه يحيي أحدهم.

اقترب "فيران" منه ومال عليه وهو يقول بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

- سنسير حتى قبيل نهاية السهل، وبعدها سوف ندخل النفق، أريد منك أن تكون حريصا كلَّ الحرص ونحن بداخل النفق؛ فهناك يوجد نبات الصن ويمنع على الجميع ملامسته وهو في هذا الطور.

صمت لحظة قبل أن يضيف:

- فهو ومعه الشون طعام الجان الأساسي.

نظر إليه "كالاب" وهو لا يدري ماذا يقول، فآثر الصمت، حتى وصلا إلى النفق ودلفا إليه. فغر "كالاب" فاه وهو ينظر في دهشة إلى تلك النباتات التي لم تكن تخرج من الأرض، بل كانت تنبت من الجدران والسقف، ثم نظر إليه "فيران" وهو يقول بنفس الصوت الخافت:

- في نهايته سوف نصل إلى الشق حيث يبدأ العمل.

كانا يسيران داخل النفق في صمت قبل أن تعلو وجه "فيران" شبه ابتسامة وهو يقول في زهو:

- إن عملي يتلخص في حساب مقدار القوة المناسبة لتحريك الحديد صعودا كي يقترب من سطح الأرض، ومن ثم أستطيع حساب عدد الجن اللازم للعمل في هذا الجزء أو ذاك.

نظر إلى "فيران" في حيرة؛ فهو لم يفهم أي كلمة من كلامه، فهمَّ الأخير أن يشرح له أكثر لكنه لم يفعل؛ لقد قابلا ولأول مرة جنود "زوما"، وهم يسيرون في مجموعات تتألف من خمس أفراد وقائدهم الذي يمتطي ظهر حيوان مفترس عجيب، لونه أسود ويتحرك في نعومة وانسيابية تبعث الرهبة في النفس.

نظر إليهم "كالاب" وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

- إنهم يشبهون تلك الكائنات التي قابلتها داخل الكهف من قبل.

ثم كاد أن يقع قلبه بين قدميه - ذلك إن كان ما يزال يمتلك قلبًا هناك في عالم الجان - لقد كان جنود "زوما" يرتدون دروعًا مصنوعة من عظام البشر، ويمسك كلٌّ واحد منهم في يده شيئا لامعا حادا يشبه تلك الأداة التي شق بها ذلك الكائن صدره داخل الكهف، وإن بدت له أكبر حجما.

نظر الجنود في لا مبالاة إليهما، ثم مضوا في سبيلهم، فقال "فيران" في صوت خافت:

- إنهم يصنعون دروعهم مما تبقى من عظام القرابين البشرية، فأكلة القرابين لا يأكلون العظام.

نظر إليه في هلع، لكن "فيران" لم ينتبه له، واستكمل كلامه وهو يقول:

- كنت أخبرك عن طبيعة عملي الهام عند الشق، يعينني في عملي نوع من الجن له طبيعة خاصة حتى بالنسبة إلى باقي أنواع الجان أنفسهم؛ هو الجن الثاقب الذي يستطيع النظر داخل الأرض لمسافات بعيدة، وعندما يجد شيئًا غريبًا عن طبيعة الأرض نفسها يقوم بوصفه لي، ومن وصفه أحدد ماهية ذلك الشيء، إن كان معدنًا ما أشرح خصائصه للزوميين، وهم من يحددون إن كان مفيدا لهم أم لا، فإن كان مفيدا لهم أبدأ في حساباتي، فأقيس العمق، وأحسب كمية هذا المعدن، ومن خصائصه أحسب مقدار القوة اللازمة لتحريكه صعودا، ومن ثم أحدد عدد الجن اللازم لكي يبدؤوا الغوص في الأرض هناك.

تنهد "فيران" تنهيدة قوية وهو يقول:

- هذا ما كنت أفعله طوال سبعة قرون من عمري، بحسابات الإنس.

نظر إليه "كالاب" وهو يقول في دهشة:

- سبعمائة عام!

ابتسم "فيران" وهو يقول:

- لقد أخبرتك أن الوقت عندنا يختلف عن الوقت في عالم الإنس.

بدا على صوت "كالاب" الحيرة وهو يسأل فجأة:

- لكن لماذا يريد "الزوميون" هذه المعادن قريبة من سطح الأرض؟

صمت ولم يجِبه، فهو في الحقيقة لم يسأل نفسه هذا السؤال من قبل، وبعد فترة من الصمت قال:

- يبدو أن البشر يختلفون في طباعهم وأحوالهم عن الجان، فنحن نؤدي عملنا في صبر وإخلاص جزءًا بجزء، بطبعنا نحب الحركة الدائمة والتي تكاد لا تهدأ إلا فيما ندر، نستطيع أن نؤدي العمل نفسه لفترات طويلة متكررة دون كلل أو ملل، من دون أن نسأل وماذا بعد.

ثم التفت إلى "كالاب" وهو يستكمل كلامه:

- لكنك تسأل طول الوقت، تحاول أن تفهم المغزى والحكمة من الأمور، وهو في الحقيقة ما يفتح في عقلي الكثير.

وتوقف عن الكلام فقد وصلا إلى موقع العمل، فوجئ "كالاب" بحجم الشق الكبير، كما فوجِئَ بعمقه السحيق، وكذلك بعدد الجان

الذين يعملون حوله، وفي المقابل كان هناك عدد لا باس به من جنود "زوما" يمسكون بالأدوات اللامعة نفسها في أيديهم.

مال عليه "فيران" وهو يقول له:

- إنها سيوف، لكنها مصنوعة من خليط الحديد والزئبق مع بعض المواد التي جلبها الزوميون معهم.

كان "كالاب" ينظر إلى الجان من حوله وهم يعملون في صبر وإخلاص وهمة، لا يثبط من همتهم تكرار فعل الشيء نفسه طول الوقت، وبينما يتابع ما يحدث تذكر "لابا"، ولا يدري لماذا تذكرها في هذه اللحظة بالذات، لقد شعر بالحنين يضرب أوصاله، وتذكر "سعدون" و"شابان"، تذكر أهل القرية، ثم شعر بخوف ما بعده خوف.. لقد تجسد "زوما" بالفعل وذهب إليهم هناك على الأرض. وبينما هو يفكر فيما يمكن أن يحدث لهم هجمت على رأسه صورة روح الجبل فتمتم بينه وبين نفسه:

- لماذا فعلت معي ما فعلت؟ لماذا أرسلت إليَّ من ينقذني بالرغم من أنني لن أستطيع العودة مرة أخرى؟

أفاقه من شروده صوت أجش يطلب من الجميع أن يبذلوا مجهودا أكبر؛ كي يقربوا الحديد من سطح الأرض، ثم قال نفس الصوت وبنبرة غلبت عليها الفرحة:

- إن سيدَنا "زوما" العظيم يريد الحديد قريبًا من سطح الأرض وفي أسرع وقت.

سرَتْ همهمات هنا وهناك والجميع يتحرك في عجالة؛ ليلتفوا جميعا حول الحديد وهم يحاولون تحريكه صعودًا ناحية سطح الأرض، لكن هيهات فلم يتحرك الحديد إلا مسافة قليلة، ثم ظهر ذلك الكائن الذي انحني له جميع الجند، وعلا صوت أحدهم وهو يقول:

- لينحني الجميع في التو واللحظة إلى سيدنا "شنن".

لكزه "فيران" كي ينحني هو الآخر، فانتبه ثم انحنى بدوره، قبل أن يعود نفس الصوت ويطلب منهم الاعتدال مرة أخرى، اعتدل "كالاب" في وقفته وهو لا يزال يختلس النظر إلى ذلك الكائن العجيب، فهو وإن كان شكله وملامحه يشبهان جنود "زوما" إلا أنه كان يمسك في يده سيف ضخما، ينتهي بنقوش عجيبة تزين مقبضه المصنوع من مادة تشبه الخشب على الأرض، بينما يد الكائن نفسه تنتهي بأظافر طويلة سوداء، وفجأة نظر ذلك الكائن ناحية "كالاب"، فقذف في قلبه الرعب، وهو يتحرك ناحيته ويميل عليه ويشمه في شك. أسقِط قلبا "كالاب" و"فيران" في قدميهما، ثم لم يلبث أن ابتعد عنهما فتنفسا الصعداء.

نظر "شنن" ناحية نفس الرجل الذي كان يأمرهم بالانحناء وهو يقول بصوت يشبه فحيح الأفعى:

- أقبل عليَّ، يا كبير الجند.

جرى ناحيته وانحنى أمامه في سرعة، فمال "شنن" عليه، وأسر له بكلمات اعتدل جسد كبير الجند بعدها، ثم تناول من "شنن" كرة زجاجية، بداخلها مادة حمراء. غادر "شنن" بعدها، فجمع كبير الجنود بعض رجاله وهو يتحدث معهم في صوت خافت.

مال "فيران" على أذن "كالاب" وهو يقول:

- لقد كدت أموت من الخوف وهو على وشك أن يكشف أمرك.

ثم تنهد قبل أن يقول:

- إن "شنن" هو الابن الأكبر لـ"زوما".

هم أن يستكمل كلامه إلا أن صوت كبير الجند قاطعه وهو يقول:

- سنستخدم تلك المادة التي جاء بها سيدنا "شنن" لتساعدنا في تحريك الحديد بسرعة أكبر.

أراد "فيران" أن يخبره أنها لن تفيد في شيء إلا أنه آثر الصمت، فتح كبير الجند تلك الكرة فقفزت منها المادة الحمراء قفزا، وبدأت تتضخم، ثم أمر الغواصين أن يغوصوا بها داخل الأرض، وقبل أن ينفذوا نظر إليهم وهو يقول بلهجة آمرة:

- عندما تصلوا إلى الحديد هناك قوموا بدهنه من الأسفل بتلك المادة، ثم ابدؤوا في دفعه إلى الأعلى.

وعندما انتهى الغواصون من فعل ما أُمروا به، اندهش الجميع حين تحرك المعدن معهم في سرعة ويسر، ليقطع أضعاف المسافة التي كان يقطعها من قبل، ثم برز المعدن أمام "كالاب" والغواصون يدفعونه من أسفل إلى أعلى. صرخ كبير الجند على الجميع وهو يقول:

- أسرعوا، فإن لها زمن معين ينتهي تأثيرها بعده.

أسرع الجميع يدفعون المعدن عاليا ومعهم "فيران" و"كالاب" الذي انتبه إلى أنه يقف معهم داخل الأرض نفسها، وإن بدت له مختلفة، شعر بالدهشة وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

- كيف يستطيعون الحركة بتلك الطريقة داخل الأرض؟ وكيف لي أن أفعل ذلك مثلهم؟!

*****

عندما عادا إلى المنزل في ذلك اليوم كانا يشعران بالتعب الشديد، جلس كِلاهما على كرسيه الوثير في آلية، وأخذا يتطلعان إلى بعضهما البعض في صمت، وأخيرا تجرأ "فيران" على أن يقطع حبل الصمت وهو يسأل:

- ما رأيك في عالمي؟

نظر إليه "كالاب" نظرة طويلة قبل أن يقول في حذر وهو يزن الكلمات:

- إيقاعه سريع، لا يتوقف.

- هي طبيعتنا التي تكاد أن تتحكم فينا.

ثم عاد الصمت يحيط بهما من جديد، لكن "فيران" قام فجأة وقال في قلق:

- كيف فاتني أمر تحويل جوفك ليقبل طعام الجان وشرابه؟!

كان "كالاب" ينظر إليه في حيرة ما لبثت أن تحولت إلى دهشة عارمة حين تذكر أنه لم يأكل أي شيء منذ عبر البوابة إلى عالم الجان. مال "فيران" برأسه وهو يمعن النظر في عينيه وكأنه يفحصهما قبل أن يقول في دهشة:

- غريبٌ أمرُك حقا، من المفترض وبعد مضي ذلك الوقت الطويل أن تكون قد فقدت وعيك بالفعل.

قالها ثم توجه مسرعا إلى جزء ما من جدار البيت الكروي الشفاف وضغط عليه بيده الصغيرة فانفتح على الفور، أخرج منه ما يشبه الثمرة الصغيرة قبل أن يعود إلى "كالاب" ويضعها في فمه، ثم يطلب منه أن يبتلعها.

شعر "كالاب" باشمئزاز لا يدري سببه، فابتسم "فيران" عندما رأى تلك العلامات التي ارتسمت على وجهه، لكن ابتسامته خبت بسرعة وحل محلها القلق وهو يطلب منه أن يبتلعها، وأخذ يراقبه في قلق، ثم تنهد عندما ابتلع تلك الثمرة العجيبة.

انتابت "كالاب" أحاسيس عجيبة قبل أن يحتل إحساس ما المشهد، إحساس لم يشعر به منذ فترة؛ الجوع الشديد.

توجه "فيران" من لحظته ناحية جزء آخر في الجدار ثم ضغطه بنفس الطريقة، قبل أن ينفتح ويخرج منه ذلك النبات العجيب ويضعه في إناء، فخرجت منه رائحة تشبه رائحة اللحم وهو يقول بصوت عال دون أن يلتفت إلى "كالاب":

- هذا الصن الذي رأيته في النفق.

ثم أضاف إليه شيئا سائلا وهو يستكمل كلامه:

- وهذا الشون.

أخذ يقلبهما معا ثم صب الخليط في إناء، والتفت ناحية "كالاب" وهو يضيف:

- والآن أصبح الطعام...

صمت فجأة وهو ينظر في تأثر إلى "كالاب" الذي فقد وعيه بالفعل، فأسرع إليه ثم أمال رأسه إلى الخلف وهو يصب في فمه ذلك

الطعام صبا. لم يهدأ لحظة، بل ظل واقفا وهو يروح ويغدو في سرعة جنونية، وأخيرا سعل "كالاب" وهو يفتح عينيه، وهنا فقط توقف "فيران" وتنهد في قوة قبل أن يلقي جسده فوق ذلك الكرسي الوثير.

بدأ "كالاب" يتحرك داخل المنزل في اتزان، على غير العادة، مما جعله ينظر إلى "فيران" وهو يقول في دهشة:

- أنا أسير في اتزان داخل البيت! هل زال تأثير سحر الزوميين أم ماذا؟

ابتسم "فيران" وهو يقول:

- ما زال السحر قائما، لكني صنعت مجالا يمنع نفاذ السحر داخل البيت.

علت وجه "كالاب" الحيرة وهو يسأله:

- متى صنعته؟!

- لا تنس أنني عالم، عالم من نوع خاص، يجمع بين علوم المواد وعلوم السحر.

كان على وشك أن يضيف شيئا آخر لكن "كالاب" قاطعه وهو يقول:

- أجب علي إذًا؛ لماذا القرابين؟ ولماذا يحاول "زوما" أن يتجسد بهذه الطريقة حتى أنه قضى مئات السنين في محاولاته هذه؟

نظر إليه "فيران" نظرة طويلة ثم قال:

- ستعرف كلَّ شيء في حينه يا بني، رويدا رويدا.

*****

تشابهت الأيام في عين "كالاب" وهي تسير بنفس الروتين المعتاد، لا يكسر رتابتها إلا حلقات النقاش التي كانت تدور بينه وبين "فيران" بعد أن يعودا من العمل، لكن ذلك الشعور بالرتابة قد تغير تماما عندما بدأ "فيران" يعلمه بعضًا من علوم الجان.

وفي يوم ما بعد أن عادا إلى البيت بعد ساعات طويلة من العمل الشاق، أخذ "فيران" يتطلع إليه في تمعن، فسأله في تعجب:

- ماذا هناك؟!

أجابه "فيران" وهو يبتسم في سرور:

- لقد فهمتُ الكثير منذ أن قابلتك.

نظر إليه "كالاب" في دهشة بدت على صوته وهو يقول:

- قابلتني أنا!

- نعم، يا "كالاب"، أنت.

- كيف ذلك؟

- لقد كنتُ قبل أن ألتقيَ بك كمن يسير داخل دائرة محدودة، أدور فيها بلا توقف، نحن الجان وإن كانت علومنا غزيرة وقدراتنا خارقة إلا أننا لا نهوى التغيير، تتحكم فينا طباعنا، وتقودنا صفاتنا التي تحركنا طوال الوقت لفعل نفس الأشياء وارتكاب نفس الأخطاء، والغريب أننا لا نتعلم من تلك الأخطاء إلا فيما ندر.

صمت قليلا وهو يفكر في عمق ثم استكمل كلامه:

- ربما يغيب عنا الهدف أو تنقصنا الرؤية...

كان "كالاب" ينظر إليه في دهشة حقيقية، وقد ألجم لسانه تماما، حتى أنه لم يقاطعه ولو لمرة واحدة وهو يقول ما قال عن نفسه وعن الجان، ويستطرد:

- لكن، ومنذ أن قابلتك وفي ذلك الوقت القصير جعلتني أفكر في أشياء كثيرة، جعلتني أحاول طول الوقت أن أربط الأحداث بعضها البعض، أحاول أن أجد الحكمة من كلِّ ما جرى وما زال يجري.

ثم نظر إلى "كالاب" في ود، وهو يكمل كلامه:

- كنت أسال نفسي طوال الوقت؛ كيف أساعدك؟! لكن في الحقيقة أنت من كنت تساعدني، لقد جعلتني أقيم ما حدث منذ البداية وأعيد صياغة الأسئلة، بل أعيد صياغة الأحداث فيما يخص "زوما" والجن والبشر، حتى فهمت الأمر أخيرا...

بدا على صوت "فيران" القوة فجأة وهو يكمل:

- لقد سألتني نفس الأسئلة أكثر من مرة، وربما ظننت أنني لم أرِد أن أجيبك، لكن الحقيقة أنني لم أكن أملك الإجابات الشافية وقتها.

ابتسم "كالاب" لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، مما جعل "فيران" يقول:

- لقد استخدم "زوما" من البداية سحر ضلال النفس.

ثم نهض فجأة وهو يكمل في حماس:

- إن السحر، أي سحر يحتاج إلى ثلاثة أشياء ليقع تأثيره ويسري مفعوله، يحتاج إلى إرادة وروح وبرزخ؛ حتى يخرج من خلاله إلى حيز الوجود ويبدأ عمله.

ثم أخذ يجيء ويذهب أمام "كالاب" وقد ازداد حماسة وهو يقول:

- لقد تولدت الإرادة هنا من أمنية الإنسان بأن يكون هذا الصنم أو ذاك هو إله حق سيحقق له مبتغاه، هي إرادة تحركها رغبة قوية مما يخلق في الخيال صورة تتشكل بحس الهوى، وتكون تلك الصورة قوية بحسب قوة الرغبة والأمنية، إيمانه هو ما يعطي هذه الصورة الحياة، فينفخ فيها روح رغبته داخل صنمه، سواء كانت تلك الرغبة هي الحماية وتخويف الوحوش والأعداء أو الزراعة والنماء أو أي

شيء كان، حيث يظن ذلك الإنسان أنه يحيط بالإله علما وأنه يوجهه كيف يشاء، فهو إله نابع من هواه، وفي المقابل يعطيه القرابين والأشياء، ثم برزخ تخرج من خلاله تلك الصورة الحية من عالم الخيال إلى حيز الوجود لتحيا حياة المادة، وهنا يأتي دور القربان، فدم الإنسان هو المحفز الذي يكوّن ذلك البرزخ للجان لكي يخرجوا إلى الوجود، وعندها يقومون بما يريدون حيث يريدون.

كان "كالاب" يستمع إليه في إنصات تام وهو يفكر في معنى كلامه؛ مما جعله يستغرق في تفكير عميق محاولا أن يربط كلام "فيران" بما فعله "زوما"؛ لذلك فقد جفل مع صوت "فيران" المفاجئ وصاحبه يقول:

- لكن "زوما" رغب في المزيد، أراد أن يكون هو نفسه تجسيد لهوى الإنسان وضلاله، أن يكون إلهًا باختيار البشر أنفسهم، وأن تكون رغبتهم هي ما تخرجه إلى عالم الإنس، وأن يكونوا له عبيدا، يدورون في فلكه على الدوام مثل الوقود الذي يضمن له الاستمرار.

ثم صمت بعدها وهو يقول في خوف حقيقي:

- لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما يستطيع أن يفعله "زوما" بعدها على الأرض، وكيف ستكون قدراته.

كان "كالاب" يستمع إليه في إنصات شديد، وبمجرد أن انتهى من كلامه سأله في حيرة:

- لكنك قلت إن الجن من خلال الممر يستطيعون التشكل على الأشياء المادية في عالم الإنس، فلماذا لم يكتف "زوما" بذلك؟

رد عليه "فيران" وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

- يتشكل على الأشياء ولا يتجسد فيها، التشكل يكون بأن يطبع صورته على شيء ما مستغلا هيئة ذلك الشيء، ويكون شكلا بلا روح، أما التجسد فهو أن يحل بروحه في الشيء نفسه.

ثم أضاف بصوت شارد:

- لقد كان هدف "زوما" الأكبر وفق خطته، أنه في مرحلة ما سوف يتجسد في ذلك الصنم هناك وتحل روحه فيه ويخرج إلى حيز الوجود ويكون في الأرض الإله (زولا) الحي المعبود.

*****

مرت الأيام والشهور، وهما على حالهما من الألفة والود، يذهبان إلى العمل معًا، وبعد أن يعودا إلى البيت يبدأ "فيران" في تعليمه علوم الجان، وذات يوم بعد أن شرح "فيران" خصائص الحديد، نظر إليه وهو يبتسم ابتسامة فخر ويقول:

- لقد انتهيت من تعليمك الكيمياء والحساب وأيضا خصائص المعادن.

- متى نبدأ في علوم الطب والأرض والسحر، وفنون القتال والضرب بالسيف؟

نظر إليه "فيران" مشدوها وهو يقول:

- هل تريد أن تتعلم هذا كله حقا؟ أتظن أنك تطيقه؟

رد "كالاب" في ثقة:

- نعم، نعم.

صمت "فيران" لبرهة من الوقت قبل أن يقول في شرود وهو يحدث نفسه:

-ولمَ لا؟! قد يستطيع تحصيل علوم شتى! ربما الإنس يختلفون عن الجن في ذلك.

- ماذا تقول؟

- اسمع، يا "كالاب" نحن معشر الجان لا ينفتح لنا إلا نوع واحد من العلوم وبمهمة وعمل واحد.. ربما يوجد من الجان من لهم علوم ومهام متعددة، لكنهم قليلون جدا.

ثم زفر زفرة قوية وهو يقول:

- لقد علمتك بالفعل كلَّ ما أعلمه.

كان يبدو وكأنه يحدث نفسه مع صوته الخافت وهو يقول:

- ربما أستطيع أن أحضر لك من يعلمك باقي العلوم، كلًّا في مجاله.

كان نهما يتعلم في سرعة أدهشت معلميه من الجن أنفسهم، هؤلاء المعلمون الذين حرص "فيران" أن يجعل كلَّ واحد منهم يأخذ على نفسه عهدًا بألا يخبر أي مخلوق بأنه قد علم قريبه أي شيء، وبذلك ضمن لـ"كالاب" أن يتعلم مختلف العلوم دون أن يشك فيه أي جني.

انهمك "كالاب" في ذلك الأمر بكل جوارحه، فمع يقينه باستحالة العودة إلى عالمه مرة أخرى، ومع طيبة "فيران" وودّه، لم يجد بدا من أن يرضى بالأمر الواقع.

* * * *

(١٠)

شعور غريب تملكه وهو يتطلع إلى "فيران" الذي كان منهمكا في صنع شيء ما داخل البيت، وابتسم رغما عنه وهو يتذكر "لابا" و"شابان"، حاول جاهدا أن يجد الرابط بين "فيران" وبينهما، فتمتم بينه وبين نفسه:

- ربما هي الصداقة والمودة، أو ذلك النقاش الفلسفي المفتوح بيني وبينه.

ابتسم مرة أخرى وهو يضيف:

- كم جلسنا نتحدث عن طبيعة عالمي الإنس والجن وعن الفرق بينهما!

خرج صوته عاليا رغما عنه وهو يقول:

- آه هكذا إذا!

سمعه "فيران" فالتفت إليه وهو يسأله في حيرة:

- هل تقول شيئا ما؟

ابتسم "كالاب"، مما زاد من حيرة "فيران" أكثر وبالأخص عندما أجاب:

- لقد تذكرت شيئا ما.. لا تشغل بالك.

عاد ينهمك فيما يفعله، وترك "كالاب" يكمل كلامه بينه وبين نفسه وقد أدرك الأمر أخيرا:

- "لابا" هي الحب والعشق الذي تكتمل به عواطفي وتنضج، بينما "شابان" كان العقل والحكمة اللذين أستند إليها حتى تنضج أفكاري.

ثم نظر إلى "فيران" وهو لا يزال يحدث نفسه:

- أما أنتَ.. مَن تكمل روحي.....

في أحد الأيام سأل" كالاب" سؤالا بدا بسيطا:

- لماذا اخترتَ أن تساعدني يا "فيران"؟ وهل كان باستطاعتك أن ترفض طلب روح الجبل؟

نظر إليه "فيران" نظرة طويلة كأنما يحاول أن يستجمع أفكاره ويزن كلامه جيدا، وأخيرا قرر أن يتكلمَ ويجيبه فقال بصوت خافت:

- بالطبع أستطيع أن أرفض طلبه فأنا أملك الاختيار، لكن بطريقة ما يبدو أننا نختلف عنكم في تحديد اختياراتنا، بل في طريقة الاختيار نفسها.

- كيف؟

- بالنسبة إلينا، فإن هناك علامات نستدل بها على وجوب فعل أمر ما، وكأنها مهمة موكلة إلينا، ولا تنس أننا حين ننفذ مهمتنا على أكمل وجه نتلقى الجائزة.

هم "كالاب" أن يقاطعه ليسأله عن طبيعة تلك الجائزة، لكن "فيران" لم يعطِه الفرصة وهو يستكمل كلامه في سرعة:

- لذلك تجد من الجن من يقبل ذلك النوع من المهمات ويطمح في الحصول على الجوائز من ورائها، ومنهم من يكتفي بما يملكه بالفعل، وبالطبع فهناك من لا يشغله شيْءٌ سوى نفسِه ونزواته.

سأله "كالاب" في لهفة:

- بماذا شعرت عندما طلب منك روح الجبل أن تساعدني؟

ابتسم ابتسامة ودود وهو يقول:

- كان هناك شيء ما يوجه إحساسي نحو ذلك الأمر، وكأني عندما أساعدك سوف أساعد نفسي.

- هل لك مثلًا مع ذلك الإحساس الطاغي بمدى أهمية تنفيذ طلب ما، أن ترفضه أو تقترح على الطالب أن يطلبه من جنيٍّ آخر بدلا منك؟

- أفهم سؤالك، ونعم أستطيع أن أفعل ذلك ولكن في النهاية سيكون من غير المجدي فعله.

تمتم "كالاب" ببعض الكلمات غير المفهومة، وكأنه يعترض على كلامه قبل أن يصمت تماما، طال الصمت بينهما هذه المرة قبل أن يقول "فيران" وهو يبتسم:

- أعلم أنك عندما تطرح الكثير من الأسئلة فهذا يعني أن هناك فكرة ما لم تنضج في عقلك بعد، أو ربما أمر ما لم تجد له التفسير المناسب حتى الآن.

غمغم وهو يبتسم ويقول

- هذا صحيح.

- ما الذي يدور بخلدك؟

نظر إليه "كالاب" وهو يقول في تردد:

- لماذا لم تختاروا أن تحاربوا الزوميين وتطردوهم من أرضكم؟

قال "فيران" في ضيق واضح:

- لقد أخبرتك من قبل.. مجلس علمائنا رفض طلبهم في البداية، لكن "زوما" استعمل السحر القديم عليهم واستعبد أرواحهم.

قاطعه "كالاب" وهو يقول في عناد:

- أعلم هذا، لكن لماذا لم تبحثوا عن طريقة أخرى لمقاومتهم وهزيمة سحرهم؟

نظر إليه "فيران" وهو يقول في استنكار:

- ليس هناك شيءٌ يستطيع هزيمة السحر القديم، هو من الأساس ليس خيارا متاحا.

قال "كالاب" في حدة:

- كيف تجزم بذلك وأنت لم تحاول؟

نظر إليه "فيران" نظرة طويلة متفحصة وهو يقول:

- من أين تأتي بهذه الأفكار؟

- لا أعلم، أشعر.. أشعر وكأن عمري قد ازْدَادَ فجأةً، وأن عقلي ازداد معه حجمًا، وبطريقة ما فهو يمتلئ بمعلومات عجيبة.

ابتسم "فيران" وهو يقول:

- لقد أخبرتك من قبل أن الوقت عند الجان يختلف عنه عند الإنسان.

نظر إليه "كالاب" وهو يقول في سرعة:

- ما الاختيار في الحقيقة؟

صمت "فيران" وهو يفكر في عمق قبل أن يقول:

- أتذكر عندما أخبرك حارس البئر أن الغرباء قصدوا قريتكم مرتين؟

- نعم.

- دعني إذًا أذكرك ببعض التفاصيل كما رويتها أنت لي، لقد جاءكم البعض طالبي السلام ومعهم نبي يدعو إلى عبادة إله واحد خالق كلِّ شيء، لكن الكهنة وسيد القبيلة رفضوا أن يتبعوه، وقرروا أن يبطشوا بهم ويقتلوهم، مع أن هذا النبي اقترح عليهم أن يعيشوا جميعا معًا في سلام، وأن يعبد كلٌّ واحد منهم إلهه الخاص به.

نظر إليه "كالاب" وكأنما يفهم الأمر لأول مرة وهو يقول:

- نعم، لقد كان اختيارهم في البداية أن يقتلوا هذا النبي وجميع أتباعه، لكن وبسبب "تيرا" ابن سيد القبيلة...

ثم صمت وبدا على صوته الحزن وهو يقول:

- أخو "لابا"، غيروا من اختيارهم، وقرروا أن يكتفوا بطردهم.

- نعم، قاموا بطردهم مع أن كلَّ ما طلبوه منهم هو أن يعيشوا بينهم في سلام، لكن في المرة الأخرى حين أتى الغزاة قريتكم قابلهم بعض أفراد القبيلة، وأعني بهم سيد القبيلة والكهنة اقترحوا على الغزاة أن يتركوهم يحيون بينهم في سلام على أن يحموا بعضهم البعض، وأن يعبد كلٌّ منهم إلهه الخاص. لقد اختاروا هم أنفسهم في هذا الموقف نفس ما رفضوه في موقف آخر، ودعني أذكرك أن الغزاة

حينها رفضوا هذا الطلب بل واشترطوا عليهم إما أن يغادروا القرية ويتركوها لهم أو أن يعيشوا فيها عبيدا.

شرد بذهنه وطال شروده حتى قاطعه "فيران" وهو يسأله:

- ماذا فهمت من هذا؟

كان بسؤاله هذا كمن فتح الباب على مصراعيه لسيل من الكلمات التي خرجت من فم "كالاب" وهو يقول في شرود:

- الاختيار لكي يكون اختيارًا لابد من توافر الخيارات التي تنتقي من بينها.

التفت إلى "فيران" وهو يضيف:

- بالنسبة إلى الجان ومما رأيت فإن اختياراتهم محدودة، بل ويمكن توقعها، لكن مع الإنسان فالموضوع أكثر تعقيدا، إن اختيارات الإنسان تتبع الظروف والأحوال، بل تختلف من وقت لآخر ومن شخص إلى شخص، يختلف باختلاف السن والحكمة والعلم والحاجة، وليس من الضروري أن يكون اختيار الإنسان هو ما يريده، فقد يضحي هذا الإنسان برغبته في شيء ما في سبيل أن يسعد إنسانًا آخر.

صمت "كالاب" وهو يزن كلامه قبل أن يستطرد:

- ولكن بالنسبة إلى الجان فالاختيار ينبع من الشعور الذاتي الطاغي عليه في وقته، وكأنما تابع للإحساس. لكن إلى أي حد يستطيع الإنسان الاختيار؟

لم ينتظر من "فيران" أن يجيبه وهو يكمل:

- هل يستطيع الإنسان أن يستمر في اختياره حتى يصل إلى أن يختار إلهه؟ وكم سيكون عدد الآلهة حينها؟ وإذا أخذنا في الاعتبار أن الإنسان يمكن أن يغير اختياره بتغير الظروف، فهل سيغير معه إلهه؟!

نظر إليه "فيران" ولم يجبه وإن دار في خلده العديد من الأسئلة والأفكار بدوره لكنه آثر الصمت وهو يتمتم بينه وبين نفسه: هل كل البشر مثل "كالاب"، يفكرون في الأشياء بتلك الطريقة العميقة؟ لماذا اختارني روح الجبل أن أساعده وأعلمه في حين أنه هو من يعلمني ويفتح عقلي على الكثير من الأمور؟

وفجأة غمر المنزل نور أزرق قوي حتى أن أحدهم كان يستطيع أن يرى من بعيد بيت "فيران" وهو يشع بذلك الضوء الأزرق، وظهر روح الجبل أمامهما.

تسمر "كالاب" في مكانه وقد أخذته المفاجأة، أما "فيران "فمع نظره الذي لا يستطيع أن يشيح به بعيدا عنه، وانتباهه الذي صرفه ناحيته تماما بدا عليه أنه يتلقى طلبًا جديدًا من روح الجبل، وأن

عليه أن يختار بين القبول أو الرفض، وفي عقله وروحه كان يدور ما يشبه الكلام، وروح الجبل يقول له بلغة غيرِ كلِّ اللغات وبدون أية كلمات:

- يجب أن تأخذ "كالاب" ليخوض الاختبار.. اختبار سيف الجلال.

شعر "فيران" بدهشة ما بعدها دهشة وهو يقول بدون صوت:

- سيف الجلال! لكن كيف لإنسي أن يظفر به في حين أن جميع الجان قد فشلوا؟!

التفت روح الجبل ناحية "كالاب"، فشعر به يتسلل إلى روحه، وهو يخبره بدون كلمات وبلغة أشبه بفرط الشعور والإحساس:

- عليك أن تثق بنفسك وتجتاز الاختبار وأن تأتي بما هو لك، فما هو لك لن يأخذه أحد منك، واختفى روح الجبل فجأة كما ظهر.....

*****

نظر "كالاب" إلى "فيران" وهو يسأله:

- ما هذه الأشياء التي تحملها معك؟

تجاهل "فيران" إجابة سؤاله، وقال بدون أن يلتفت إليه:

- علينا أن نستعد جيدا للرحلة.

ثم ترك ما بيده والتفت إلى "كالاب" وهو يضيف في حدة:

- قد تكون رحلة بلا عودة.

ساد الصمت بينهما وعاد "فيران" يجمع تلك الأشياء، وبعد أن انتهى نظر إليه مرة أخرى وهو يقول في تردد:

- انتبه جيدا لما سأقوله لك يا "كالاب"، ولا تقاطعني أبدا.

انتبه إليه وهو يكمل:

- في رحلتنا هذه سنمر أولا من بين أكلة القرابين عبر الهوة السحيقة، وبعدها سوف نغوص في وادي (الماس) ببريقه اللامع الأخاذ الذي يعتبره الجان أثمن شيء في الوجود، وهو وادٍ غريب، كلُّ ما أعرفه عنه أن فيه تتوه أرواح الجان، وتخطفها سحرة الشيطان، فيسيطرون عليها ويسخرونها ثم يستعملونها كيفما شاءوا، وبعدها سنعبر وادي (القيظ) حيث تحترق الأجساد هناك وتذوب.

صمت لحظات قبل أن يكمل ويقول:

- وإلى هنا، ينتهي علمي برحلة سيف الجلال، فلا أعلم ما سنواجهه بعدها، هذا إن استطعنا أن نعبرهم جميعا!

لاحظ "كالاب" أن "فيران" يتحدث في حزن شديد فنظر في عينيه وهو يقول:

- ما بك؟ لماذا يبدو عليك الحزن هكذا؟

نظر إليه "فيران" دون أن ينطق بكلمة واحدة. لكنه لم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر وهزمته دموعه وخرجت من عينيه لتسيل على وجهه ثم تتبخر في مشهد عجيب، نظر إليه "كالاب" في تأثر، وبصوته الباك قال:

- لا أريد أن أفقدك، كما فقدت ابني من قبل!

وهنا سأله "كالاب" في تأثر واضح:

- كيف فقدته؟ أنت لم تخبرني عن هذا أبدًا.

أشاح "فيران" بوجهه بعيدا وهو يقول:

- لقد استعبد "زوما" روحه.

ظن "كالاب" أن "فيران" سوف يضيف شيئا ما، لكنه صمت تماما بعدها، وهو يجهز الأشياء اللازمة في رحلة الوصول إلى سيف الجلال.

*****

لم ينسَ "فيران" أن يطلق تلك الكلمات داخل البيت قبل مغادرتهما له، والتي تجعل الناظر إليه يظن أن أهله ما زالوا بداخله، كما لم ينسَ أن يلقيَ على نفسه ثم على "كالاب" كلمات أخرى جعلتهما يبدوان كالزومبيين تماما.

ساد الصمت بينهما وهما يسيران عبر سهل الزئبق، ثم قال "فيران" في جدية واضحة:

- لن نعبر النفق هذه المرة بل سنسير عبر الممر.

وصمت مرة أخرى، وبمجرد أن وصلا إلى الممر لم يتمالك "كالاب" نفسه وهو ينظر حوله في دهشة، فقد كان يغطي الممر من الجانبين ما يشبه الفتحات الضبابية، كانت وكأنها نوافذ مفتوحة في الفراغ، وخلف تلك الفتحات المنتشرة هنا وهناك كان يستطيع أن يرى بشرا يقومون بمهامهم العادية ليلا، لقد كان النهار عند الجن هو ليل الإنس، وأجسام الجان تتموج في سرعة في ذلك الفراغ فتبدو وكأنها موجودة هنا وفي نفس الوقت موجودة في عالم البشر هناك، كان كأنهم موجودون في العالمين في الوقت نفسه.

ثم شهق شهقة عالية وهو ينظر إلى ما يفعله الزوميون المنتشرون بالممر هنا وهناك، فواحد منهم كان يقوم بأفعال غريبة فقط ليخوف إنسيًّا على الطرف الآخر، والآخر يبدو عليه أنه يهيم في حب إنسية، ومنهم من كان يتحدث عبر مجال مغلق ليلقي الكلام في رأس إنسي. العجيب أن جو الممر نفسه كان يعج بالضباب الأبيض الذي يتحرك فتتحرك معه الأجساد وتتموج، وتنتفخ وتنضغط مع تغير لونها باستمرار.

عصف الحنين بوجدان "كالاب" وهو يرى صور البشر خلف تلك النوافذ، وشعر برغبة قوية تدفعه إلى أن يحاول أن يتصل بـ"لابا"، وبالفعل مد يده عبر إحدى تلك النوافذ الضبابية، شعر بيده تغوص في مادة رخوة عجيبة، وتمنى من داخل قلبه أن يرى "لابا".

في البداية لم يحدث شيء مطلقا، ثم بدا له وكأن صورة ما تتجمع أمامه وهي تقترب وتقترب، لكنه فجأة أخرج يده في فزع وهو يلهث وكأنما رأى الشياطين هناك، مرت بضع لحظات استطاع أن يتمالك نفسه، فحاول أن يغوص بيده مرة أخرى لكنه فوجئ بيد أخرى تجذب يده ليس للداخل ولكن لتخرجها خارجا، و"فيران" الذي يجذب يده يقول:

- احذر، فإنك قد تقضي عمرك كله واقفا أمام رغباتك، هيا بنا فأمامنا رحلة طويلة.

نظر إليه نظرة خاوية وإن كان يبدو على وجهه الفزع، لكنه لم ينطق بأية كلمة وهما يبتعدان عن الممر ليكملا رحلتهما.

كانا قد اقتربا من الجبل حين أخرج "فيران" عباءتين، ألقى بواحدة منهما إلى "كالاب"، ثم ارتدى الأخرى فاختفى في الحال، شهق "كالاب" وصديقه يختفي من أمامه. سمع صوته يطلب منه أن يرتدي عباءته هو الآخر، وحين ارتداها دخل نفس المجال مع فيران مما جعله يراه مرة أخرى أمامه.

كان "فيران" يبتسم له ويقول:

- كيف تظن أنني أحضرتك أول مرة من الهوة بعد أن خرجت بك إلى السطح؟

أومأ "كالاب" برأسه علامة الفهم، وانطلق خلف "فيران" الذي كان قد بدأ يصعد الجبل بالفعل، صعدا الجبل ثم لم تلبث أن بدأت رحلة الهبوط و"فيران" يقول:

- لقد بدأت الرحلة الحقيقية.. لابد أن تأخذ حذرك، إن أكلة القرابين يستطيعون أن يشتموا رائحة المخلوقات كلها حتى وإن لم يستطيعوا رؤيتهم.

في حذر ما بعده حذر كانا يمران بين الوحوش السوداء النائمة في هذا الوقت من النهار، وصوت صفير الريح يدوي في أذانهما دون انقطاع، والدوامة السوداء تكاد أن تقتلعهما من مكانهما اقتلاعا، وهي تتلاعب بجسديهما فتلقى بهما يمينا ويسارا وهما يحاولان أن يتفاديا الوحوش قدر المستطاع، لكن هيهات، لقد ألقت الريح بجسد "فيران" بجوار وحش منهم ففتح عينيه لكنه لم يرَ شيئا، حاول "فيران" أن يبتعد عنه في حذر، لكن الوحش كان يتحرك ناحيته وهو يتبع رائحته، ومدَّ الوحش أحد مخالبه فجأة وهو يضرب الهواء فأصاب شيئا ما من تلك الأشياء التي كان يحملها "فيران" معه، ولحسن حظه أن عبر حاجز الهوة قبل أن ينال منه الوحش، وعبر خلفه "كالاب".

لم تستطِع تلك الوحوش العبور خلفهما، فقد كانت حدودها هي حدود الهوة نفسها، شعر "كالاب" أنه يغوص داخل شيء إسفنجي قبل أن يعبره ويقف على الناحية الأخرى منه، ثم خلع "فيران" عباءته وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة، وظهر من خلفه "كالاب" وهو يخلع عباءته بدوره.

كان "فيران" يفتش في قلق بين الأغراض التي يحملها قبل أن يتمتم:

- ذلك الوحش أوقع واحدة من أهم الأشياء معي، إحدى العباءتين المصنوعتين من الزئبق.

نظر إليه "كالاب" وقد بدا عليه عدم الفهم، فقال "فيران" بضيق واضح:

- من دونهما قد تتشتت أجسادنا وتتوه إلى ما لا نهاية في وادي الماس...

كان "فيران" ما زال يتحدث حين نظر "كالاب" أمامه وشهق شهقة قوية، لقد بدا أمامهما وعلى مرمى البصر أرض لامعة، يبرق ترابها ويلمع بذاته دون أن يسقط عليه الضوء، نظر "فيران" أمامه وهو يتمتم في انبهار:

- إنه وادي الماس.

ودون أن ينبس بكلمة أخرى أخذ "فيران" يجري ناحيته، و"كالاب" يجري من ورائه وهو يحاول جاهدا أن يلحق به، توقف "فيران" فجأة وأخذ يضحك ضحكات هستيرية وهو يقول:

- هيا معي، اجمع ما تستطيع جمعه من الماس، هيا هيا.

قالها وهو يخرج العباءات جميعا ويضع بداخلهم الماس وهو ما زال يطلق تلك الضحكات الهستيرية، والغريب أن صدر "فيران" بدأ ينتفخ وينتفخ وهو يتلون بلون قرمزي، ومع زيادة انتفاخ صدره جلس على الأرض وقد بدا عليه الإعياء الشديد، وأخذ جسده يتلوى، مما جعل "كالاب" يشعر بالخوف والقلق عليه، وفي سرعة ألقى عليه تلك العباءة المصنوعة من الزئبق، وحسنا فعل، حيث بدأ جسده يهدأ رويدا رويدا، ثم نظر إلى "كالاب" بعينين زائغتين، كأنه لا يعرفه، ثم بدأ يأتي بأفعال غريبة وهو يردد:

- الماس، الماس.

- ماذا أصابك؟ أفق أرجوك، أنت أفضل من هذا التراب اللامع، قلبك هو الماس الحقيقي، عد أرجوك.

ثم فجأة أمسك "كالاب" به وهو يهزه في عنف ويقول بصوت عال:

- عد، يا "فيران"، فأنا أحتاج إليك.

وكأنها كانت كلمة السر، "أفاق" فيران مما هو فيه وعاد، ثم نهض فجأة وهو يقول:

- هيا بنا لابد أن نكمل طريقنا في الحال.

سار "فيران" و"كالاب" خلفه يبتسم فرحًا، وكالعادة في هذه الرحلة منذ أن بدأت، ساد الصمت مرة أخرى، حتى عندما دخلا إلى وادي القيظ، لم ينطقا بكلمة واحدة وهما مشغولان بما يصيب جسديهما بفعل تلك السخونة العجيبة التي تخرج من داخل الأرض إلى خارجها فتكاد تذيب الأقدام، وكأنهما يسيران فوق جمر من النار، وفي لهفة كانا يتلفتان من حولهما بحثا عن شيء ما يخفف عنهما ذلك الحر الشديد دون جدوى، لقد كانت عبارة عن أرض جرداء مليئة بالتشققات الكبيرة، كانت التشققات من الوسع والكبر إلى درجة أن القدم تكاد أن تغوص فيها، وبدون مقدمات، وقع "كالاب" مغشيًّا عليه، فجرى "فيران" ناحيته وهو يقول في قلق:

- "كالاب"، بني!

أسند رأس "كالاب" على يديه وهو يقول في حذر:

- ما زال بداخلك جزء إنسي!

ثم حمله وهو يحاول أن يعبر به وادي القيظ، كان يشعر بأن جسده على وشك أن يحترق، لكنه كان يسير في حزم وقوة، إذ أصبح

كلُّ همه في هذه الحياة أن ينقذ "كالاب"، وفجأة ظهر نبع ماء أمامه، فتمتم في رجاء:

- أيكون هو نبع الحياة؟ أهكذا أسماه؟

ثم ألقى بـ"كالاب" داخل الماء وقفز خلفه، كان يصب الماء على رأس "كالاب" وجسده، حين فتح الأخير عينيه وهو يقول بصوت واهن:

- أين نحن؟

- يبدو أننا داخل نبع الحياة.

ثم أكمل كلامه والابتسامة تغطي وجهه كله:

- لقد اجتُزْنا وادي القيظ.

وقف "كالاب" وهو ينظر من حوله مشدوها بذلك المنظر الجميل، حيث الماء ينساب من أعلى في نعومة من بين الصخور، على هيئة شلال صغير، شعر بعافيته تعود إليه فنظر إلى "فيران" وهو يسأله:

- وماذا بعد؟

نظر إليه "فيران" في حيرة وهو يقول:

- لا أعلم، أنا حتى لم أكن أعلم بوجود النبع في رحلتنا تلك، ولولا أني قد سمعت أحدهم يذكر اسمه من قبل، لما علمت بوجوده أبدا.

فجأة انزاح جزء من الصخر كاشفا فتحة داخل الجبل خلف الماء المنهمر، وصوت عجيب يقول في هدوء وعمق:

- ما الذي أتى بكما؟

لم يدرِ "فيران" ماذا يقول، لكن "كالاب" قطب جبينه وهو يفكر في عمق، ثم أخذ يسترجع ما دار بينه وبين روح الجبل قبل أن يبتسم ويقول:

- جئت أطالب بما هو لي، فإن كان لي فلن يمنعه عني شيء.

ساد الصمت بعدها وكثرتْ الهمهمات هنا وهناك، ثم عاد ذلك الصوت يقول:

- نحن نعلم من أنت، أنت في أصلك من الإنس ولست من الجن، ونعلم كيف جئت ومن أين، إنها أول مرة يزورنا فيها مخلوق مثلك.

مرت لحظات صمت، عاد بعدها الصوت يقول بهدوء:

- ادخل يا "كالاب"، لتخوض اختبارك وتظهر لنا حقيقتك.

تقدم ليدخل من الباب، وعندما هم "فيران" بالدخول خلفه استوقفه الصوت وهو يقول في حدة:

- "كالاب" وحده.

وقف بالخارج، وما إن دخل "كالاب" حتى عادت الصخرة مكانها لتغلق الفتحة مرة أخرى، فوقف متسمرا في مكانه، يحاول أن يتخيل ما يحدث مع "كالاب" بالداخل.

لم يكد "كالاب" يخطو أولى خطواته بالداخل حتى انغلقت الفتحة، التفت خلفه بصورة لا إرادية، وشعر بالقلق يعصف بكيانه، وقد أصبح سجينا بالداخل مع ذلك الظلام الذي خيم على المكان، أخذ يتلفت حوله في تحفز وهو يتوقع هجوما من نوع ما، لكن لم يحدث شيء، مرت لحظات من الصمت لم يسمع فيها إلا لهاث أنفاسه، ثم فجأة سمع صوت أجش وصاحبه يقول:

- اسجد لي، أيها العبد.

قطب "كالاب" جبينه دون أن ينطق بحرف، وبعد لحظات من الصمت عاد الصوت الأجش يقول:

- اسجد لي، يا عبد؛ فأنا الرب.

لم يتحرك من مكانه، وبدا وكأنه تحول إلى تمثال وذلك الشيء يبدأ في الظهور رويدا رويدا، ويحيط به الضوء، وأخيرا ظهر ذلك

الكائن المهيب، طويل عريض، متناسق الجسد تبدو عليه القوة، وعاد ليقول بلهجة حازمة:

- إذا كنت تريد أن تعود إلى عالمك وترى "لابا" مرة أخرى فاسجد لي على الفور، اسجد لإلهك (زولا).

نظر إليه "كالاب" في برود عجيب لا يتناسب مع الموقف وهو يقول:

- هل أنت (زولا)؟

نظر إليه ذلك الكائن وهو يقول في غضب:

- نعم أنا إلهك (زولا).

ابتسم "كالاب" وهو يقول في هدوء:

- لا أظنك إلهًا، بل أنت مثلي مجرد مخلوق، وإني لأظن أن هناك إلهًا حقًا قد خلقك وخلقني حتى وإن كنت لا أعرفه بعد فهو موجود، وجوده لا يحتاج إلى معرفتي، فهو موجود بذاته لأنه إله وهو إله لأنه موجود.

- سيحل بك عذابي، أيها الكافر.

وفجأة ظهرت من حوله الوحوش أكلة القرابين وهم يحيطون بـ"لابا" و"فيران" ويهمون بأكلهما، فأصابه فزع حقيقي وهو لا يدري ماذا يفعل، فأغمض عينيه وهو يقول بصوت غلب عليه التضرع:

- أعلم أنك هناك، أيها الإله الحق خالق كلِّ شيء، أطلب مساعدتك وعونك.

وهنا حدث ذلك الأمر، لقد ظهر "روح الجبل"، ومع ظهورهم خرج من قرنه نور أزرق يشبه النور الذي خرج منه عند ماء البئر، وبمجرد أن خرج النور أحرق الوحوش من حول "لابا" و"فيران"، ثم أضاء المكان كله واختفى الجميع، ليجد "كالاب" نفسه يقف هناك وحيدا.

وفجأة ظهر في الأعلى شعاع من نور أخضر أخذ ينسدل في بطء وبداخله ذلك الشيء الذي عرفه "كالاب" على الفور دون أن يراه من قبل، إنه سيف الجلال، مد يده والتقطه وهو ينظر إليه في انبهار؛ سيف كبير يلمع بصورة أشد من تلك التي تلمع بها أرض الماس كلها، ثم دوي ذلك الصوت في أذنه قويا وهو يقول:

- إذًا فهو أنت، أنت حامل سيف الجلال.

والصوت يكمل في دهشة ويقول:

- لقد أتى من قبلك سبعون من فرسان الجن يطالبون به، ولما لم يكن من حق أحد منهم فلم ينله أحدهم أبدا، فهو لم يظهر من الأساس لهم، كما بقوا جميعا مسجونين عندنا.

وهنا انزاح ستار الظلمة في الأركان، وبدت هناك الزنازين وبداخلها يوجد الفرسان مساجين، لم يفكر "كالاب" طويلا وهو يقول:

- بصفتي حامل سيف الجلال أطالب بما هو لي.

سأله الصوت بنبرة قلق وهو يقول:

- بماذا تطالب، يا حامل السيف؟

- أطالب بالإفراج عن السبعين، كما أطالب بالسماح لهم أن يأتوا معي أجمعين.

- أحسنت، هم معك ولك، سيذهبون ومعهم سبعون سيفا من سيوف الحرية منا لك هدية.

انزاحت الصخرة فأطلق "فيران" الصيحة.. صيحة الفرح.

* * * *

(١١)

جرى "فيران" مسرعا في اتجاه "كالاب"، وهو يحتضنه في سعادة وسرور، وبصوت يفيض بالفخر يقول:

- لقد فعلتها، إنه أنت بالفعل، أنت حامل سيف الجلال!

لم ينطق "كالاب" بأية كلمة، وهو يلتفت لينظر خلفه، وفوجئ "فيران" بفرسان الجن يأتون من خلف "كالاب" يحملون سيوف الحرية، تابعهم في ريبة، مما جعل "كالاب" يقول له:

- لا تقلق، هم أصدقاء.

وحكى له ما حدث في الداخل، نظر "فيران" إليه غير مبالٍ بالفرسان وهو يقول:

- أظن أنه بسبب كرم أخلاقك قد طلبت لهم الحرية، لكن لماذا طلبت أن يكونوا معك؟!

نظر إليه "كالاب" طويلا ثم نظر إلى الفرسان وهو يقول في صوت حماسي قوي:

- إن هناك شيطانًا يدعى "زوما" ومعه جنده يستعبدون الجان في وادي سيليان، يجعلونهم يعملون داخل الأرض ليل نهار، ليخدموا سيدهم، هناك بين الإنس على الأرض، لقد رأيته عندما نظرت إلى

عالم الإنس وأنا في الممر، وقد تحول إلى كائن قوي مهيب، يسجد له البشر من حوله ظنًا منهم أنه الإله المعبود، كما أنه يستخرج الحديد الذي يقربه له أهل وادي سيليان من سطح الأرض؛ ليستخدمه في بناء أسلحته وعتاده، وإذا تركناه سوف يستعبد المزيد من الجن يتبعه استعباد البشر أجمعين.. إن من مصلحة الجن والإنس وقف زحف "زوما" وادعاءاته.

ثم تحولت نبرة صوته إلى حزن وهو يقول:

- أعلم أني لن أستطيع العودة إنسيًّا مرة أخرى، وأني سأحيا هنا واحدًا منكم حتى مماتي، لكني أدعوكم أيها الفرسان، أن نحاول معا إنقاذ البشر والجان.. سنبدأ بإيقاف "زوما" في وادي سيليان، ولتكن هي البداية.

ثم صاح بحماس مفاجئ وهو يقول:

- هل أنتم معي؟

فأجاب الفرسان في نفس واحد:

- لقد أُخذ علينا الميثاق حين حررتنا بأن نكون لك تبعًا وحرسًا.

لم يتخذا ومعهما الفرسان طريق العودة نفسه، بل ساروا عبر نفق قريب من المكان، ذلك النفق الذي اقترحه عليهم أحد الفرسان، والذي بد لهم أنه بالفعل يحفظه عن ظهر قلب، على الأخص عندما

وصلوا إلى نقطة يتفرع عندها النفق إلى فروع عدة وهو يشير إليهم في ثبات أن يدخلوا من أحد تلك الفروع ويقول:

- هذا أقصر طريق يوصل إلى وادي سيليان.

وبالفعل، سار الجميع فيه وقد غلب عليهم الصمت، لكن "فيران" اقترب من "كالاب" وهو يقول بصوت خافت:

- ما خطتك؟

أجابه بصوت عال غلب عليه الحماس:

- سنحاربهم، يا "فيران".

ولم ينطق أحدهما بكلمة أخرى طوال الطريق، و"فيران" يفكر عما طرأ على شخصية "كالاب"، وكيف نضج كلَّ هذا النضج في ذلك الوقت القصير! كيف أصبح قائدًا لفرسان من الجن؟!

على الجانب الآخر، كان "كالاب" مهمومًا بما رآه في الممر. لقد رأى ما يشبه المشهد العام للقرية، وسمع أحدهم ينادي باسم "لابا" فتجيبه شابة جميلة تبدو في أوائل الثلاثينيات من عمرها، أحزنه أنها كانت تبكي في مرارة وهي تخفي وجهها بين يديها، ورأى البعض يقف أمام نار حامية وبينهم شاب بدين خمن أنه "سعدون"، وهم يصنعون سيوفا من الحديد، عرفه حين رأى البعض يحفرون في الأرض ويستخرجونه، كما كان هناك عدد كبير من أهل القرية يبنون

شيئًا ضخما، وآخرون يسجدون في خشوع لـ"زوما". قطع شروده صوت "فيران":

- لقد وصلنا بالفعل!

خرج "كالاب" خلفه من تلك الفتحة الخفية في الجبل وهو ينظر مندهشا بدوره ويقول:

- نعم لقد وصلنا.

خرج الفرسان جميعا من خلفه و"كالاب" يقول لـ"فيران":

- خذنا إلى مكان "شنن".

نظر إليه "فيران" وهو يقول في حذر:

- أنت تعلم أن "شنن" هو ابن "زوما" وقائد جيشه، أليس كذلك؟

- أعلم.

صمت "كالاب" لحظات ثم عاد بعدها ينظر إلى "فيران" وهو يقول بلهجة غامضة:

- بعد أن تدلنا على مكانه أريد منك أن تختبِئَ على الفور.

نظر إليه "فيران" في حيرة وهو يقول:

- أعتقد أنه الآن عند النفق هو وبعض جنده.

تحولت نظرته إلى نظرة قلق بدا على صوته وهو يقول:

- إن "شنن" هو الابن الأكبر لـ"زوما"، ومعروف عنه القوة والمهارة في القتال واستخدام السيف، باختصار هو محارب عظيم.

صمت "فيران" لحظات بدا على وجهه الاشمئزاز قبل أن يضيف:

- إنه معروف بالسادية والهمجية، يتلذذ كثيرا بتعذيب الآخرين قبل أن يقتلهم.

- لا تخف، فقط قدنا إلى مكانه.

وكما توقع "فيران"، فقد كان "شنن" عند النفق، كما كان هناك الكثير من الجنود الذين يتناثرون هنا وهناك، وعدد لا بأس به من الحراس يحيطون "بشنن" الذي يقف في ثقة ولا مبالاة وجنوده، يعاملون سكان وادي سيليان بغلظة، ويجبرونهم على المزيد من بذل الجهد.

التفت "شنن" إلى "كالاب" الذي دخل عليهم ومعه فرسانه، ونظر إليه نظرة الخبير بأمور القتال؛ لقد كان "كالاب" والفرسان مسلحين جميعا عكس باقي سكان الوادي، فقال بصوت جهوري أجش:

- من أنتم؟ وكيف تحملون السلاح في حضوري؟!

أجابه "كالاب" بصوت عالٍ وهو يقول:

- بل من أنتم؟ وكيف تسمحون لأنفسكم باحتلال أراضي الآخرين واستعبادهم بهذا الشكل؟

- من أنا! أتتجرأ وتسألني من أنا؟! أنا "شنن" ابن "زوما" سيد الإنس والجن، وهؤلاء هم جنودي والباقون عبيدي. نحن الأقوى، والقوي يحكم الضعيف.

- أرني قوتك، إذًا...

استل "كالاب" سيف الجلال بعد جملته هذه، وهجم على "شنن" وهو يقول:

- وحدك، قاتلني وحدك، أيها القوي.

أشار "شنن" في ثقة إلى الحرس من حوله بمعنى أن ابتعدوا فنفذوا في الحال، ثم استل سيفه وهو يضحك ضحكة عالية ويقول:

- إذًا فهناك فارس مغوار في وادي سيليان.. سأستمتع كثيرا بقتلك، أيها الغبي.

تقدم الفرسان خلف "كالاب" وهم يرددون في صوت واحد:

- هممممم هممممممم.

والتحم السيفان، ومن الوهلة الأولى تبين لـ"شنن" أن خصمه محارب صنديد، فقد كان يتلقى ضربات سيفه في ثبات، ثم يتحرك في خفة ليحاول أن يصيبه هو بسيفه، وكان "شنن" هو الآخر مقاتلا صنديدًا وماكرا بحق، فبينما "كالاب" يصد ضربة سيف قوية كانت موجهة إلى صدره، أخرج "شنن" خنجرًا من حزامه وحاول أن يطعن به جنب "كالاب" غدرًا، إلا أن الأخير كان سريعا جدًّا وهو يتملص منه ويدور حول نفسه ويضرب بطن "شنن" بسيفه فيشقه عرضيا، فعلا صوت الفرسان مرة أخرى وهم يرددون:

- هممممم هممممم.

تحرك جند "شنن" ليحموا سيدهم ويقتلوا خصمه، فهم لم يكن يعنيهم الشرف كثيرا بل النصر وحده، وتحرك الفرسان في نفس الوقت ليحموا "كالاب"، واشتبكوا معهم، واحتدمت المعركة.

أثبت الفرسان أنفسهم وهو يستعملون سيوف الحرية التي ألهبت عزيمتهم، في مواجهة جند "شنن" الذين يتجاوزون الألف جندي، حيث برقت سيوفهم برقة خاطفة عندما رفعوها عاليا فعلت صيحتهم مرة أخرى:

- هممممم هممممم.

ودب الخوف في قلوب الجند، بل خاف "شنن" نفسه، وعندها قرر أن يستخدم آخر حيلة في جعبته، وأخرج من حزامه غبارا ألقاه على "كالاب" وهو يقول بصوت آمر:

- لتأتيني روحك، ولتكن عبدي في التو واللحظة.

توقف الفرسان والجند جميعا عن القتال، فصاح "فيران" من مخبئه:

- لاااااااااا، إلا السحر القديم.

تسمر الجميع في مكانه وهم يشاهدون الغبار يلتف حول جسد "كالاب" ثم يدور حوله في سرعة متزايدة ولونه يتحول إلى الأحمر القرمزي، و"شنن" يقول:

- لتأتيني روحك الآن.

وهنا حدث شيء عجيب، لقد بدا للجميع أن "كالاب" ينقسم إلى جزأين متشابهين، جزء روح وجزء جسد، ونسخة روحه تحاول جاهدة أن تغادر جسده، لكن فجأة توقف الانقسام وعادت الروح تلتحم بالجسد وتختفي داخله، كما توقف الغبار السحري عن الدوران وتساقط على الأرض.

نظر الجمع إلى "كالاب" في ذهول غير مصدق لما حدث، وشهق "شنن" نفسه الذي ما لبث أن صرخ وهو يقول:

- كيف؟!

ولو أن أحدًا سمع ما يدور في عقل "فيران" الآن لفهم السبب، فقد كان يبتسم وهو يتمتم بينه وبين في نفسه: بالطبع، فروح "كالاب" ليست من الجن لكي يستعبدها السحر القديم.

كان الجميع يقف هناك في سكون وصمت والذهول يشل أجسادهم.

عاد صوت "شنن" يدوي عاليا وهو يقول:

- لماذا تقفون في أماكنكم هكذا؟ اهجموا عليهم.

احتدمت المعركة مرة أخرى، هجم "شنن" على "كالاب" وهو يحاول أن يباغته، لكنه قفز قفزة هائلة وهو يطوح سيفه في قوة ويضرب رقبة "شنن"، كانت الضربة من القوة حتى أنها فصلت رأسه عن جسده الذي خر على الأرض في مكانه دفعة واحدة، وبهت الجند وهموا بالفتك بـ"كالاب"، لكن الفرسان أحاطوا به من كلِّ صوب وهو يشهرون سيوفهم عاليا.

كان الجميع يقف عند النفق مصدوما، لا يصدق أي منهم ما حدث منذ لحظات، سكان وادي سيليان وكذلك جند "شنن"، والسبعون فارسًا الذين كانوا يحيطون بـ"كالاب" و"فيران"، إلا شخصا واحدا من جند "شنن"، مُلَثَّمًا لَا يُرَى من وجهه إلا عيناه، يتلفت حوله وهو

يحلل الواقع أمامه، كان يتمتم بينه وبين نفسه: هذا العدد القليل منهم قد قتلوا ما يقارب نصف الجند في دقائق معدودة، لو استمرت الحال هكذا فسيقتلوننا جميعا.

قطع أفكاره دوي صوت أحد الجند وهو يقول:

- اقتلوهم لقد قتلوا زعيمنا "شنن".

وهجموا على السبعين فارسًا وزاد عدد القتلى من جند "شنن"، حيث تجاوز الخمسمائة، دون أن يصاب أحد الفرسان بخدش واحد، فرفع جندي البوق الذي يحمله وهم بالنفخ فيه نفخة استدعاء باقي الجنود، لكن ذلك الجندي المُلَثَّم صاح فجأة بصوت عالٍ:

- كفى.

ثم تقدم ووقف أمام الجند وهو يزيح اللثام عن وجهه، فركع له الجنود جميعا، وهو يلتفت إلى "كالاب" ويقول:

- نحن نعلن استسلامنا.

لكن حامل البوق قال معترضا:

- سيدي "فنن"، ماذا تقول؟! دعني أستدعي باقي الجند.

تقدم "كالاب" خارج دائرة فرسانه الذين أفسحوا له الطريق وهو يقول بصوت حذر:

- "فنن"! "فنن" من؟

- أخو "شنن" الأصغر.

أصيب "فيران" بالحيرة، لكن "كالاب" كان يفكر في عمق بينه وبين نفسه ويقول: "شنن" و"فنن"! لقد فهمت الأمر الآن.

ثم التفت بوجهه ناحيته وهو يقول:

- إذًا أنت المعروف على الأرض بالإله (فمنان)، وأخوك هو (شمنان)، ومعكما (منون) تمثلون للبشر أبناء الإله الأكبر (زولا)، أليس كذلك؟

تعجب "فنن" من اطلاع هذا الجني على كلِّ هذه الأمور، إلا أنه لم ينطق بكلمة واحدة، ولم يجب سؤال "كالاب"، الذي لم يكن يحتاج إلى أن يسمعها فهي تظهر على وجهه جلية بالفعل. مرت بضع لحظات كان "فنن" ينظر فيها إلى "كالاب" في كره واضح قبل أن يقول فجأة بهدوء لا يتناسب مع مهزوم قُتل أخوه أمام ناظريه:

- بصفتي ملك "الزوميين" الآن أطلب منك أن تترك جنودي يعملون في الشق بأيديهم لفترة وجيزة، حتى يزيحوا باقي الحديد ويقربوه من الأرض، لن نستخدم أحدًا من سكان الوادي مرة أخرى بل سنعمل بأيدينا نحن، وعندما ننتهي سوف نرحل في هدوء.

وقف "كالاب" صامتًا يفكر فيما يجب أن يفعله، خصوصا بعد أن عرف تلك المعلومات الجديدة، فـ"زوما" لم يكن ليكتفي بأن يتجسد

هو فقط على صورة (زولا)، بل كان يخطط أن يتجسد أبناؤه أيضا، شعر بحيرة عارمة وهو يفكر فيما يجب أن يفعله مع "فنن" وجنوده، وبعد لحظات من التفكير العميق رفع رأسه وهو يقول:

- لا، لن يحدث.

هم "فيران" ومعه الفرسان بالاعتراض، فقد كان عرض "فنن" منطقيًّا ومقبولا من وجهة نظرهم، لكن "كالاب" نظر إليهم وهو يبتسم ابتسامة غامضة ويقول:

- أحضروا لي لوحًا وقلما.

جلس "فيران" في المكان المخصص للحسابات والمكاتبات عند الشق، يحمل في يده القلم وأمامه اللوح وينظر إلى "كالاب" في ترقب، منتظرا أن يملي عليه ما يكتب، إلا أن "كالاب" بدا كصنم وهو يقف هناك من دون حركة، وبعد مرور دقيقتين كاملتين، التفت إليه وهو يقول:

- إنه من "فيرن"، أحكم على "فنن" ملك الزوميين هو وجميع جنوده بالرحيل عن وادي سيليان، رحيلا نهائيًّا من دون رجعة، ويمنع عليهم منعا باتا استخدام السحر القديم على أي فرد من الجان في أي مكان، ومن يخالف هذا العهد يعاقبه فرسان الحرية بالقتل أو الحرق، ويشهد على هذا العهد الأرواح العلوية.

نظر "كالاب" إلى "فنن" وهو يقول بلهجة حازمة:

- أقبلْ علي، واعطني يدك.

فعل "فنن" ما قيل له، وعندما أعطاه يده خدشها "كالاب" وجعلها تنزف على اللوح، ثم أمر جميع الجند أن يفعلوا المثل، وتعجب الجميع فقد كانت هذه أول مرة يؤخذ فيها مثل ذلك العهد على الجان.

خرج جميع سكان وادي سيليان عن بكرة أبيهم وهم يشاهدون المعجزة، فقد كان الزوميون يرحلون عن واديهم، وانتشر بين الجميع خبر كتابة العهد كانتشار النار في الهشيم، وتساءل الجميع من هو "فيرن" حقا؟!

وخارج حدود الوادي كان حامل البوق يسأل "فنن":

- سيدي، كيف سمحت لهم أن يخرجونا من الوادي حيث توجد البوابة؟

نظر إليه "فنن" نظرة غريبة قبل أن يبتسم ويقول:

- ما لا يعلمه أحد، أن بوابة وادي سيليان واحدة من سبع بوابات متماثلة، تقع كلُّ بوابة منهم في واحدة من الأرضين السبع.

ثم ضحك وعلت ضحكته وضحك معه حامل البوق.

ما إن رحل آخر جندي من جند الزوميين عن واديهم حتى جرى جميع سكان وادي سيليان عن بكرة أبيهم، في فرحة عارمة ناحية الشق حيث ما زال "كالاب" هناك ومعه "فيران" والسبعون فارسًا.

اعتلى "كالاب" صخرة مرتفعة وهو يقول بصوت جهوري:

- أنا حامل سيف الجلال، أقول لكم، معشر الجان، إني قد مكثت بينكم وعرفتكم، منكم من يملك روحًا طيبة ومنكم من روحه شر خالص، الطيب فيكم طيب، والسيئ منكم سيئ، ليس فيكم وسط، بل لا تعرفون للوسطية سبيلا، تملكون العقول والاختيار لكنكم لا تحددون خياراتكم، وينقصكم الهدف والرؤية، كما أنكم تملكون العلوم إلا أن كلَّ واحد منكم ينغلق على علمه كأنه تركته وورثه هو فقط دون غيره، حتى أنكم لا تتبادلون العلوم فيما بينكم. إنكم أحاديين الصفات والاتجاهات والطريق..

أقول لكم، يا سكان وادي سيليان، إن ما يزيد الحياة ثراء هو وجود الاختلاف والتغير والتطور، الثراء الذي يعطيه الفهم من التجارب والمعاملات، أنصحكم، أيها الجن الطيب، أن تتبادلون العلوم فيما بينكم وأن تزوروا الوديان من حولكم، أن تفيدوا وتستفيدوا...

كان ما يزال يعتلي الصخرة وهو يخطب فيهم بصدق وحب واضحين، ثم بدأ جسده يزداد كثافة ويتغير لون وجهه، ثم سقط فجأة

وأخذت أنفاسه تتقطع، وأخذ جسده الإنسي يظهر وهو يتلوى ويئن من الألم، وبدا واضحا للجميع أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفجأة شعر "كالاب" كأنه يطفو في الهواء، ثم ظهر روح الجبل أمامه، ومع رؤيته إياه شعر براحة غريبة تسري في نفسه وبهدوء عجيب يكتنف عقله، وكأنه كان هناك حمل ثقيل وانزاح عن كاهله.

كان "كالاب" يبتسم وهو ينظر إلى أسفل ويرى جسده ما زال يرقد على الصخرة أسفل منه، وانتبه أنه يطير في الهواء وفهم الأمر، إن روحه قد غادرت جسده، وهي الآن تتحدث مع روح الجبل في ذلك المجال الخاص، حيث اختفى جميع الجان من حوله، لكنه لم يبال وهو يبتسم مرة أخرى وينظر إلى روح الجبل ويقول:

- إن كان هذا هو الموت فإنه مريح جدًا.

قال له روح الجبل في هدوء:

- ما زال في عمرك بقية، وعليك أن تكمل المهمة.

هم أن يسأل روح الجبل عن تلك المهمة حين انضم إليهما داخل ذلك المجال الخاص رجل شديد بياض الوجه، شديد بياض الشعر والشارب واللحية، وبمجرد ظهوره سأل روح الجبل في لهفة:

- لقد كان "كالاب" يحيا بيننا من قبل، فلماذا يموت الآن؟

قال روح الجبل في هدوء:

- بسبب ماء البئر عندما تحول لبنا وشرب منـه، لكن تـأثيره قد انتهى الآن.

نظر "كالاب" إلى ذلك الرجل في دهشة يشوبها الفرح وهو يقول:

- "فيران"! لكن كيف؟

لم ينتظر إجابة سؤاله وهو يقول:

- أهكذا تبدو روحك؟ لكن هل فارقت روحك أنت الآخر جسدك؟!

أجاب روح الجبل في سرعة:

- لا، إن روحـه مـا زالت مرتبطـة بجسده بذلك الرابط الخفي تماما كروحك، أنا من استدعيت روح "فيران" لتكون الآن معنا، لأنـه في النهاية اختيار "فيران" نفسه، وقراره وحده.

قالها روح الجبل وهو ينظر إلـى روح "فيران" نظرة عميقة وقد ألقى فيها ما ألقى، ثم لم يلبث أن قال:

- إنه قرارك، إنه اختيارك.

لكن "فيران" لم ينطق بكلمة واحدة وهو ينظر إليـه فـي صـمت، فقطع "كالاب" حبل الصمت وهو ينظر إلـى روح الجبل، ثم يقول فجأة:

- من أنت حقا؟

نظر إليه روح الجبل وهو يقول:

- نحن أرواح علوية نظهر في عالمي الجن والإنس على السواء، لا نحتاج بوابات لنتنقل بينهما.. نحن حلقة في الأسباب، نطيع الأوامر ونوزع المهام.

بدا أنه سيقول شيئا آخر إلا أنه صمت للحظات قبل أن ينظر إلى "فيران" ويقول:

- ما قرارك؟ وما اختيارك؟

- قبل أن أقابل "كالاب" كنت أؤمن بأن حياتي هي الحياة، وعلمي أكثر من كافٍ لي، لكن عندما قابلته وعرفته استطاع أن يحرر روحي، فأعطاني هدفا للحياة، علمني أن علمي ليس بكاف أبدا، وعندما تخبرني أنه سيموت وعليَّ إنقاذه...

كانت الدموع تسيل من عينَي روحه مُتلألئة كالماس وهو يستكمل كلامه ويقول:

- فإن عليَّ إنقاذه حتى لو ضحيت بروحي لأفديه.

قال روح الجبل في هدوء:

- ليس بروحك، بل بجسدك ووجودك الذي تعرفه، إذا أردت إنقاذه فعليك أن تضيف روحك إلى روحه بحيث يفنى جسدك وتبقى بداخل جسده.

- فقط أخبرني ما يجب عليَّ فعله.

كان يقولها وهو ينظر إلى روح "كالاب" التي بدأت تتلاشى من أمامهما.

* * * *

(١٢)

حمل "فيران" "كالاب" الفاقد الوعي في قوة مدهشة أمام جميع سكان الوادي، ثم أخذ يجري بحمله في سرعة عالية وهو يتجه ناحية الجبل، وما أن وصل إليه حتى بدأ يتسلقه بكل ما أوتي من قوة، أخذ يلهث وهو يشعر بالتعب إلا أنه لم يتوقف ثانية واحدة؛ إذ علم أن حياة "كالاب" تعتمد عليه وعلى سرعته في تنفيذ ما أخبره به روح الجبل، وأخيرًا وصل إلى الكهف، فدلف إليه بسرعة.

كان يسابق الزمن وهو يسرع الخطى داخل الكهف على أمل أن يصل إلى المذبح قبل أن يلفظ "كالاب" آخر أنفاسه، وصل فألقى بجسد "كالاب" فوق الصخرة، ثم التفت إلى الجدار في نهاية الغرفة وهو يتجه إليه، وما أن أصبح أمامه حتى رفع يده الصغيرة يتحسس جزءًا منه وهو يقول الكلمات التي علمها إياها روح الجبل، فانفتحت البوابة.

فُتحت نفس البوابة العجيبة التي أحضرت "كالاب" إلى عالم الجن، فوقف "فيران" يتطلع إلى البوابة قبل أن يتمتم:

- إنها تبدو كما وصفها لي "كالاب" تماما، ها هو السائل القرمزي الذي يموج بداخلها، ولكن كيف هذا؟! إنه ثابت داخل فتحته لا ينساب منها!

تذكر أمر "كالاب" فعاد مسرعا إلى الصخرة حيث تركه، ألقى نظرة على جسده وهو يقول مبتسمًا:

- نعم، يا "كالاب"، أستطيع أن أختار، ولقد اخترت أن أفعلها من أجلك.

أمسك "فيران" أداة تشبه السيف، والدموع تنساب من عينيه، وفي شفقة شق أعلا صدر "كالاب" بين كتفه الأيمن والأيسر، ثم اعتلى الصخرة، ومدد جسده بجوار "كالاب"، ثم قام بشق صدره هو نفسه، وكلام روح الجبل يتردد في رأسه:

- إذا قررت أن تساعده، فعليك أن تذهب به مسرعا إلى الكهف، ثم تقوم بفتح البوابة مستخدما تلك الكلمات الخاصة، وهناك سيكون اختيارك أين تريد أن تذهب في مساعدته، إن أردت أن تذهب في مساعدته بعيدا فعليك أن تشق صدره ثم تشق صدرك واترك الباقي لي. لكنك يجب أن تعلم، أنك حين تفعل ذلك لن تعود أبدا ذلك الجني الذي يسكن وادي سيليان بل ستكون مجرد روح، روح مضافة إلى روح "كالاب".

ومن خلال عينين لم يعد قادرا على أن يفتحهما عن آخرهما، رأى وهو على وشك أن يفقد الوعي روح الجبل يقترب ثم يقف أمامه، ويدخل ذلك الجزء الطويل حيث يلتف قرناه حول بعضهما إلى داخل جرح صدره ثم يخرجه وهو يحمل شيئا ما، ثم رفع رأسه إلى أعلى

وذلك الشيء الذي أخرجه من صدره ما زال ملتصقا بقرنيه، ثم اتجه إلى "كالاب"، وأدخل ذلك الجزء من قرنيه في جرح صدره هو أيضًا، وهنا خرج منه نور عظيم سكن صدر "كالاب"، وعندما أخرجه لم يعد ذلك الشيء يلتصق به، بل تركه داخل صدر "كالاب"، وانتهى كلُّ شيء، حيث أظلمت الدنيا أمام عيني "فيران".

فتح "كالاب" عينيه، وفي وهن ما بعده وهن حرك رأسه وهو يحاول أن يستوعب ما حوله، أصابته الدهشة عندما وجد نفسه قد عاد إلى نفس الغرفة داخل الكهف، يستلقي بجسده فوق صخرة الذبح، وفي لهفة تحسس غمده فوجد أن سيف الجلال ما زال في موضعه، حاول أن يرفع جسده لكنه لم يستطع، فعاد يستلقي فوق الصخرة مرة أخرى وهو يلتقط أنفاسه في سرعة.

كل ما يذكره أنه كان يحلق عاليا وبجواره روح الجبل، وهو ينظر إلى جسده الذي كان يتحول إنسيا مرة أخرى، ثم انضمت إليهما روح "فيران"، ابتسم عندما تذكر هيئة تلك الروح.

غادر الصخرة، وهو يتلفت حوله فلم يجد أي مخلوق، كان يشعر بثقل في قدميه وهو ينقلهما في بطء خارج الغرفة قبل أن يقف ويتلفت حوله في حذر، ولم يكن هناك أي مخلوق داخل الكهف، فقرر أن يغادره، سار مترنِّحًا في اتجاه المخرج، وعندما غادر الكهف أطلق شهقة دهشة عالية وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

- يبدوا أنني قد فقدتُ الوعْيَ لمدة طويلة، لقد تغير كلُّ شيء، النور من حولي يبدو أشد من ذي قبل.

نظر كالاب إلى الأفق بانتباه تام ثم قال:

- لم يكن هناك مثل تلك السماء في عالم الجان!

كان يهبط من أعلى الجبل في حذر قبل أن يتوقف فجأة وهو يتلفت حوله في حيرة؛ لقد استرعى نظره تلك الأبنية العالية العجيبة، عاد ينظر أمامه في سرعة حين لمح آلات غريبة تمر من أمام الجبل، بعضها يحمل الحجارة والبعض الآخر يحمل الحديد، آلات تجرها حيوانات ضخمة يسوقها رجال أكبر حجما من سكان وادي سيليان؛ فظن أن "فنن "قد عاد بجيشه واحتلَّ الوادي مرة أخرى.

هبط من الجبل ثم سار مبتعدًا عنه، وعندما التفت عن يمينه شهق شهقة عالية، لقد ظهر أمامه ذلك الصرح الضخم، وعدد كبير من الرجال يتحركون حوله وهم ينقلون الحجارة وبعض أشياء أخرى مما يوحي أنَّ بناءه لم ينتهِ، لكن ما جعله يطلق تلك الصيحة هو شكل الصرح نفسه الذي بدا له على صورة كرسي ضخم.

يبدو أن أحدهم قد سمع شهقة "كالاب"، حيث اقترب شخص من خلفه وهو يقول في قوة:

- قفْ عندك.

أحس بالفزع مع ذلك الصوت المفاجئ، لكن إحساسه ما لبث أن تغير إلى الحيرة، ذلك لأن ذلك الصوت كان صوتَ إنسيٍّ، التفت إليه في لهفة ليجد جنديا ينظر إليه في ريبة قبل أن يستكمل كلامه وهو يقول في غلظة:

- ممنوع على أي أحد الوجود هنا، إنهم يجهزون المكان لمراسم الزواج المقدس.

انعقد حاجباه في دهشة حقيقية وفتح باب عقله السؤال الذي كان يطرقه منذ أن غادر الكهف؛ هل عاد إلى عالم الإنس؟! قطع حبل أفكاره صوت الجندي وهو يقول في تعجب:

- ألم تكن تعلم ذلك؟

غمغم "كالاب" في حذرٍ:

- أنا غريبٌ عن هذا المكان، وقد وصلتْ في التو.

لاحظ "كالاب" أن صوت الجندي قد بدأ يلين، وهو يقترب منه قبل أن يقول بصوت يملأه الفخر:

- إنه اليوم الذي سيمن فيه الإله (زولا) على البشر ويتزوج واحدة منهم.

- ومن العروس؟

أجابه الجندي وقد ازداد شعوره بالفخر:

- "لابا" ابنة "كشح" زعيم القبيلة السابق.

وأُسْقِط في يد "كالاب"، ترك الجندي وبدأ يسير على غير هدى، وهو يحاول أن يتجنب الجنود الكثيرة المنتشرة من حوله، وبنفس الدهشة التي أصابته منذ أن غادر الكهف كان يتلفت حوله وهو يكرر نفس الجملة بينه وبين نفسه: "إن المكان قد تغير بالفعل".. عقد حاجبيه وهو ينظر إلى تلك التماثيل الضخمة المنحوتة بمهارة في الجبل، وبطريقة عجيبة بحيث تبدو كأنها جزء من الجبل نفسه.

كانت التماثيل منحوتة بعناية في جزأين متقابلين من الجبل، وهما يصنعان بينهما ما يشبه الممر والذي ينتهي بذلك الكرسي الضخم الذي استرعى انتباهه من قبل في نهاية الممر في الجهة المقابلة، كان يستطيع أن يراه بوضوح أكثر من هذه الزاوية، لقد نحتوا جزءًا من الجبل نفسه ليشكل كرسيًا ضخمًا تظلله الصخور من فوقه، إن المكان نفسه أصبح أكبر مما يتذكره، وكأنهم حركوا الجبال أو أعادوا توزيعها.

وبعد فترة أخذته قدماه إلى المكان الذي يحمل له الكثير من الذكريات، إلى حيث كان يجلس مع "لابا" وشابان"؛ لقد أخذته قدماه إلى البئر، ولما وصل فوجئ بأنهم قد أزالوا التبه الرملية من خلفه، تلك التبه التي سقط من فوقها المبارك "شيبالا" ليدلهم على مكان الماء، لكن ما جعله يشعر بالضيق هو البناء الكبير الذي بنوه فوق

البئر على مسافة واسعة، والذي يستحيل معه الدخول إليها أو حتى الاقتراب منها.

جلس على صخرة هناك يفكر فيما يحدث وما يجب عليه فعله، والحكمة من وراء هذا كله، أطلق زفرة حارة وهو يقول:

- لقد عدت بالفعل، لكن كيف أعود بعد ذلك كله لأجد "زوما" وقد نصَّب نفسه إلهًا في الأرض؟

علا صوته دون أن يدري وهو يصرخ ويقول:

- ولم يكتف بهذا بل سيتزوج "لابا"!

استرعت صرخته انتباه رجل عجوز كان يمر بقربه في تلك اللحظة، وكان من فرط تعبه يجر رجليه على الأرض جرًّا، توقف العجوز وهو ينظر إليه في حيرة ثم خطا نحوه في بطء حتى وقف أمامه وهو يقول:

- اخفض صوتك يا بني، وإلا سمعك الجنود فيقتلوك أو يسجنوك بتهمة الكفر.

كان يدفن وجهه بين يديه حين سمع صوت العجوز، فرفع وجهه ونظر إليه في تفحص، لقد كان عجوزا أشيب الرأس، يرتدي ملابسَ قديمةً ممزقةً لا تكاد تستر عورته، ويتكئ على عصا مصنوعة من خشب الشجر، انفطر قلبه لمنظر الرجل فقام في سرعه

ليجلسه مكانه، جلس الرجل بالفعل ثم ربت على الصخرة بجواره وهو يبتسم، فهم "كالاب" أنه يريده أن يجلس بجواره.

ابتسم "كالاب" وهو يجلس بجوار العجوز، وقبل أن يقول أي شيء ظهر شاب بدين يقترب منهما، كان ذلك الشاب يلهث ويتساقط من وجهه العرق وهو يقول:

- أين أنت يا "شابان"؟ لقد بحثت عنك في كلِّ مكان!

نظر "كالاب" إلى ذلك الشاب السمين والذي لم يكن سوى "سعدون"، لقد تعرف عليه حتى قبل أن يقول "شابان":

- هنا يا "سعدون"، اجلس بجوار ذلك الشاب الطيب.

ثم عقد حاجبيه وهو ينظر إلى "كالاب" ويقول:

- لكن من أنت يا بني؟!

نظر إليه "كالاب" نظرة طويلة عميقة، وأخيرا قال:

- أنا غريب، وقد جئت لأحضر زفاف الإله (زولا) على البشرية "لابا".

نهره "سعدون" الواقف أمامه وهو يقول:

- لا تنْطقْ اسمه من فضلك، لا أريد أن أُذبح أو أُسجن.

ثم التفت إلى "شابان" وهو يقول:

- لقد جئت لآخذك إلى البيت، فقد حان وقت الطعام.

نظر "شابان" إلى "سعدون" نظرة ذات مغزى وهو يومئ برأسه في اتجاه "كالاب"، ففهم الأمر، وقال في ود:

- لابد أنك جائع أيها الغريب، هيا تفضل لتأكلَ معنا.

لم يتغير شكل "سعدون" كثيرا حتى بعد أن كبر وأصبح ذلك الشاب الثلاثيني، كذلك طباعه لم تتغير أيضا، فهو ما زال نفس الشخص المرح كثير الكلام، لم يتوقف عن الكلام طوال الطريق إلى البيت، لقد أخذ يتحدث بصوت خافت عن الحياة وكيف تغيرت بعد أن حلت روح (الإله) في التمثال ودبت فيه الحياة، ثم أصبح إلهًا حيًّا يعبدونه ويسجدون له، وحتى بعد أن وصلوا إلى البيت القديم حيث يعيش "شابان" و"سعدون" لم يتوقف الأخير عن الكلام، حتى وهو يجهز الطعام قال في حماسة واضحة:

- لقد علَّم الإله الناس كيف يستخرجون المعدن من الأرض، بل علمهم كيف يصنعون منه السيوف وآلات الحرب والطرق لتنقل الصخور والمعدن المستخرج من الأرض.

كان يتكلم في سرعة مما جعله يلهث فتوقف على الفور ليلتقط أنفاسه، وبعد لحظات هدأت نفسه فعاد يستكمل:

- لقد صنع العربات ومهَّد لها الطرق.

جلس الجميع في صمت يتناولون الطعام القليل الذي أعده "سعدون"، لكن "شابان" قطع حبل الصمت وهو يقول:

- منذ أن تجسد لم يتوقف عن غزو القرى من حولنا، ثم يرسل رسله لأهل تلك القرى وهو يحملون نفس الرسالة، والتي مضمونها أن من يختار طاعته سوف يأخذه في زمرته وجنده، وإلا يكون عبدا له يعمل في استخراج المعدن وتصنيع آلات الحرب وبناء الصروح وتمهيد الطرق، والنحت في الجبل.

ثم ما لبث أن توقف عن الكلام وعن تناول الطعام، مرت لحظات من الصمت قبل أن يطلق "شابان" زفرة قوية وهو ينظر إلى "سعدون" الذي كان يجلس بجواره ويقول:

- هل رأيت كيف جعلهم ينحتون في الجبل عرشه؟ هل رأيت ممر الآلهة هذا كما يحلو له أن يسميه؟

كان "كالاب" يستمع في إنصات تام حتى توقفا عن الكلام، فقام من مكانه وأخذ يجيء ويغدو أمامها قبل أن يقول حزن:

- لكن أين الاختيار في أن تصبح عبدا بالجسد أو عبدا بالروح؟! في الحالتين ستصبح مجرد عبد.

نظر إليه "شابان" وهو يقول في صوت غلب عليه الحنين:

- ماذا تعني، أيها الغريب؟

- إن اخترتَ الإيمان به يستعبد روحك، وإن اخترت ألا تؤمن به يستعبد جسدك.

هز "شابان" رأسه وهو يقول في حزن والدموع تتلألأ في عينيه:

- طريقة كلامك تذكرني به.

ثم لم تلبث دموعه أن غلبته وهو ينظر إلى "سعدون" ويقول:

- أليس كذلك؟

كان "سعدون" يبكي بالفعل وهو يقول:

- نعم، إنه يذكرني...

صمت وهو ينظر إلى "كالاب" قبل أن يستكمل في تأثر:

- يذكرني بـ"كالاب"

- نعم أنا "كالاب".

ظل الصمت يغلف المكان بعد تصريح "كالاب"، حتى صاح "شابان" وهو يقول برجاء وبصوت يغلبه البكاء:

- أحقا أنت؟! لكن كيف؟ لابد أنهم قد قتلوك عندما قدموك قربانا للآلهة!

هز رأسه وهو يقول في حزن:

- نعم لقد حاولوا قتلي بالفعل، لكن الإله الحق أراد لي الحياة بدلا من الموت.

كان ينطق الجزء الأخير من كلامه وعينه تترقرق بالدموع، قام "سعدون" في سرعة يحتضنه في قوة وهو يقول:

- منذ أن أخذوك بدلًا مني قربانا وأنا أتمنى الموت، ولولا "شابان" لكنت قتلتُ نفسي بالفعل.

ثم عقد حاجبيه في حيرة وهو يستطرد:

- ولكن كيف؟ كيف عدت من الموت؟ إنك تبدو تقريبا في مثل سني!

- سأقصُّ عليكما قصتي كلها فيما بعد، لكن ما يهمني الآن هو إنقاذ "لابا" وإظهار كذب "زوما" وادعائه.

ضاقت عينا "كالاب" عندما وجدهما ينظران إليه في حيرة، ثم ابتسم وقد فهم السبب فقال:

- أو (زولا) كما تعرفونه، المهم الآن أن تخبراني بكل ما تعرفانه عنه، وعن حرسه وجنده وأماكن تواجدهم، وكيف من البداية حدث ذلك التجسد؟

نظر إليه "شابان" وشرد ببصره وهو يقول:

- منذ ما يزيد عن عشرين عامًا، بعد شهر تقريبا من تقديمك قربانا لهم، وبينما القرية تغط كلها في النوم استيقظ الجميع على صوت قوي يشبه الفحيح، أعقبه ضجة عالية تكاد تصم الآذان، فخرج الجميع من بيوتهم وتجمعوا بالقرب من سفح الجبل وهم يتساءلون في خوف عما يحدث. خرج عليهم كبير الكهنة "عرعر" من الكهف مهرولًا وهو يبدو عليه الذهول، وكان يردد ويقول: لقد تجسد، لقد تجسد.

صمت جميع سكان القرية وهم يستمعون إليه ويتساءلون فيما بينهم عما يعنيه "عرعر"، الذي أكمل بصوت يشبه صوت المجنون: لقد تجسد الإله زولا، وصار حيًا. نظر الجميع إلى التمثال الذي بدأ ينقل قدمه ويتحرك، فأصابهم الذهول وانعقدت ألسنتهم، حيث صار أمامهم إنسانًا طويلًا عريضًا مهيبًا لا يملك على رأسه أو جسده شعرًا، وتحدث، ليسمعه أهل القرية لأول مرة، ويا له من صوت! كان جهوريًا لم يسمع مثله من قبل وهو يأمرهم ويقول: اسجدوا لي، يا عبادي. وبصورة تلقائية سجد الجميع.

توقف "شابان" عن الكلام وهو يحاول جاهدا أن يبتلع ريقه، ولكن هيهات فقد جف حلقه من فرط الحماس، وقبل أن يكمل كلامه سأله "كالاب":

- أنت تقول أنه قوي، ما مدى هذه القوة؟

أجابه "سعدون" هذه المرة وهو يقول:

- قوي جدًّا، فهو في إحدى المرات حارب وحده عشرين رجلًا، وقتلهم بيديه العاريتين.

وعندما وجد "كالاب" ينظر إليه مستنكرا كلامه أضاف في سرعة:

- نعم، صدقني من دون سلاح، فهو يستطيع أن يتحكم بيديه في حياة من أمامه، كما أنه يخرج نارا من يده فيقتل كلَّ من أمامه على الفور.

تدخل "شابان" في الكلام وهو يقول:

- إنه يسمع حديث الرجال عن بعد، كما يرى ما يحدث من خلف ظهره.

نظر إليهما في صمت طال وهو يفكر في عمق، إلا أنه في النهاية قال:

- أريد أن أقترب منه قدر الإمكان وفي حضور الناس أجمعين.

نظر إليه "شابان" في حذر وهو يقول:

- سيكون وقت الزفاف هو أنسب الأوقات.. ماذا يدور في رأسك؟

نظر إليه "كالاب" في صمت دون أن يضيف كلمة واحدة.

* * * *

(١٣)

جاء اليوم الموعود وتجمع الناس من كلِّ حدب وصوب ليحضروا زواج الإله المتجسد (زولا) من الإنسية "لابا".

كان يجلس على عرشه المهيب بعد أن انتهى الرجال من صنعه، ولا يبدو على وجهه أي تعبير، وعن يساره وعلى كرسي منخفض عنه تجلس "لابا" التي يبدو عليها الحزن العميق.. كانت المشاعل المضاءة مصطفة على الجانبين تضيء ممر الآلهة وتزيده مهابة وجلالا، كما كانت هناك مشاعل تضيء ظلمة الجبل من خلف العرش، ونار أخرى مشتعلة على الأرض بين الناس وترتفع عاليا.

دارت بين الناس حوارات عديدة، فظهروا منقسمين بين سعيد ومؤيد، أو رافض وحزين، و"عرعر" الذي أكل منه الدهر وشرب يقف قريبًا من العرش محني الظهر لكنه مبتهج وسعيد، علا صوت "عرعر" علوًّا يتناسب وكبر سنه وهو يقول:

- صمتا، أيها الناس، لقد تجمعنا اليوم لنشهد زواج الإله الأكبر (زولا) بالإنسية "لابا"، ذلك الزواج الذي هو كرم من الإله ليضمن للناس الجنة والحياة الأبدية...

قاطع خطبته خروج رجل من بين الجموع وقال بصوت عال:

- ألم يئن الوقت كي تعود إلى رشدك، وتنتهي عن ضلالك يا "عرعر"؟

ثم نظر ذلك الرجل ناحية (زولا) وهو يضيف في حزم:

- إن (زولا) ليس إلهًا، بل مجرد مخلوق من مخلوقات الإله الواحد الحق، رب الأرباب ورب الأرض والسماء.

سرت همهمات بين الناس وهم ينظرون في حيرة إلى الرجل، فقال "عرعر" غضب:

- من أنت، أيها البغيض؟

- ألا تعرفني؟

نظر إليه في ريبة وهو يقول:

- لا، لا أعرفك!

- أنا "تيرا"، ابن "كشح"، وأخو "لابا".

سادت الدهشة والهمهمات بين الجميع، وهبت "لابا" واقفة على قدميها تنظر في سعادة إلى أخيها، وأرادت أن تقفز من على كرسيها وتجري إليه وهي تهتف باسمه، لكن الحرس من حولها أمسكوا بها وأعادوها لتجلس على كرسيها عنوة.

كان (زولا) ينظر إلى "لابا" في غضب، ثم نهض واقفا مما جعله يبدو مهيبا وهو يقول في حزم وبصوت يصم الآذان:

- كفى، أنا (زولا) رب الأرباب، لا أعلم لكم إلهًا غيري.

- إن اسمك هو "زوما" ولست برب، بل مخلوقًا من مخلوقات الإله.

مد (زولا) يده وخرج منها كتلة من النار أصابت كتف "تيرا" لكنه لم يقتله على الفور، صمت الجميع وهم ينظرون إلى الرجل وهو يمسك كتفه ويتأوه بصوت مسموع، وعلت ضحكات (زولا) هو ينظر إلى الرجل ويقول:

- هل يستطيع إلهك أن يفعل ذلك؟ وهل يستطيع أن ينقذك من يدي الآن؟

ثم جمع في يده نارا أكبر حجما ورفع يده ليضربه مرة أخرى بنية القضاء عليه، فحبس الجميع أنفاسهم وهم ينتظرون أن يخفض يده فتخرج منها النار وتقتل "تيرا" لكن قبل أن يفعل ذلك تحرك رجل آخر من بين الجموع ثم وقف أمامهم وهو يلتفت إلى (زولا) ويقول في هدوء:

- أتقتل رجلًا أن يقول ربي الإله الخالق؟

أكمل ذلك الرجل كلامه وهو يقول:

- إنه يدعوك بالحُسنى أن تترك ضلالك وتعود إلى رشدك، وأن تتوقف عن ادعاء الألوهية.

ثم التفت ناحية الناس وهو يقول وقد عقد حاجبيه:

- أيها الناس، لقد دعاه "زوما" وليس (زولا)، لكنه لم ينتبه أو يعترض، فليخبرنا أيهما هو؟!

انتبه الناس في هذه اللحظة إلى ذلك الرجل وهو يلتفت ناحية (زولا) مرة أخرى ويقول في سخرية:

- هل اسمك الحقيقي "زوما"؟ هل تستطيع أن تخبر الناس من هو "زوما" حقًّا؟

لم تدرِ "لابا" لم شعرت بهذا الشعور العجيب الذي يكاد يعصف بها منذ أن بدأ ذلك الرجل الكلام.

لم يتكلم (زولا) على الفور، مما جعل "عرعر" ينظر ناحية الرجل وهو يسأله في استنكار:

- ومن أنت، أيها الشقي التعس؟

نظر إليه "كالاب" وهو يقول بصوت غلب عليه الحزن:

- أنا! أنا من قدمتَه قربانًا كي ترضي صنمك وتعطيه الحياة، أنا مَن دماؤه أعطت إلهك الزائف القدرة على التجسد، أنا من أريقت دماؤه على مذبح الكفر، أنا العائد من الكهف.

ثم نظر إلى (زولا) وأخرج سيفه ورفعه عاليا وهو يقول في حماس:

- أنا حامل سيف الجلال.

فوجئ الجميع بـ(زولا) ولأول مرة يخرج تلك الشهقة والرجل يكمل:

- أنا من حرر وادي سيليان من ظلم "زوما" وجنده، أنا من قتل "شنن" ابنك يا "زوما".

فوجئ الجميع بالإله يقف متسمرًّا في مكانه كأنه عاد تمثالا مرة أخرى وهو يحاول أن يتأكد من صحة ادعائه وحقيقة موت ابنه، وفجأة دبَّ في قلوب الجميع الرعب مع تلك الصرخة التي أطلقها "زوما" قائلا:

- لاااااا، سأقتلك أيها التعس.

ورفع يده وهي تبرق بذلك الضوء المبهر، واستيقن الجميع أن ذلك الرجل الواقف هناك هالكٌ لا محالة، وصوتا "سعدون" و"شابان" ينطلقان عاليا وهما يصرخان:

- لاااااا، "كالاااااب".

سرت همهمة بين الناس وهم يرددون:

- "كالاب"! "كالاب" الذي ذهب إلى عمق الكهف قربانا، قد عاد بعد تلك السنين!

اجتاحت فرحة عارمة صدر "لابا" عندما سمعت اسمه، إلا أن الفرحة قد تحولت إلى قبضة تعتصر قلبها وهي تنظر إلى يد (زولا) التي تحمل نارًا كالشمس، حاولت أن تتملص من يد الحراس الذين يحيطون بها وهي تصرخ:

- لاااااا.

لكن كتلة النار كانت قد غادرت يده بالفعل وتتجه ناحية "كالاب" لتحرقه، لكن فجأة سمع "كالاب" صوتا من داخل عقله يخبره أن يمد سيفه أمامه بطول ذراعه، وتعجب الجميع حتى أنهم تسمروا في أماكنهم، فحين مد "كالاب" السيف أمامه خرج منه ضوء أخضر عظيم قابل نار "زوما" في منتصف الطريق والتحم بها ومنعها من الوصول إلى هدفها، والصوت بداخله يخبره أن يتقدم من "زوما" أكثر.

استجمع قوته وتقدم ناحية "زوما" الذي شعر بقوة "كالاب" فقال بصوت غلبته الدهشة:

- اقتلوه أيها الجند.

لكن صوت "تيرا" علا بين الجميع وهو يقول:

- أتدعي أنك رب الأرباب والإله الخالق ثم تخاف من مواجهة إنسي؟!

ثم التفت إلى الجنود وهو يقول:

- إن كان (زولا) إلهًا حقا فلن يحتاج إلى عونكم ليقضي عليه.

توقف الجند جميعا أمام منطق "تيرا" الذي التفت ينظر في قلق ناحية "كالاب" الذي يقاتل "زوما" بكل قوته.

احتدم القتال بين "زوما" و"كالاب"، الأول يقذفه بكتل النار، والثاني يتفاداها حتى أصبح بالقرب منه، أخرج "زوما" من غمده سيفا ضخما ورفعه بسرعة في الهواء ثم هوى به في مهارة وهو يحاول أن يصيب رأس "كالاب"، وكاد أن ينجح في مسعاه إلا أن الأخير رفع سيفه ليتلقى الضربة عليه، وقد كان له ما أراد لكنه شعر وكأنها ألف مطرقة قد طرقت على سيفه، لقد كان "زوما" بالفعل قويًّا جدا، فتراجع "كالاب"، و"زوما" يتحرك في بطء ليلحق به.

وقع "كالاب" على ظهره فتعالت ضحكات "عرعر" ممتزجة بصرخات "لابا"، و"زوما" يرفع سيفه ويهم بضربه وهو يقول:

- هل ظننت حقا أنك تستطيع أن تهزمني أيها البشري التعيس؟!

كان سيفه يهبط في قوة وهو متأكد من موت "كالاب"، لكنه ضرب الأرض؛ لقد تدحرج "كالاب" في خفة ليتفادى ضربة سيفه قبل أن يقف على قدميه ويميل بجسده ثم يضرب جانب جسد "زوما"

بسيف الجلال، فجرَحه، وسال من جانبه الدم، والناس من حوله يتمتمون:

- أإله وينزف دمًا؟!

لم يسمعهم "كالاب"، الذي صرف انتباهه كله صوب جرح "زوما"، لقد كان الجلد حول الجرح يتحول إلى ما يشبه الحجارة، علا صوت "فيران" بداخله وهو يقول:

- سيف الجلال يعيد ما كان، يعيد جسده حجرًا، لكن كي تقتل روح الجن فيه عليك أن تطعن القلب تمامًا.

قام "كالاب" في همة ونشاط، وتحرك في خفة ومهارة وهو يضرب جسد "زوما" هنا وهناك، وبينما الأخير يرفع سيفه ليضرب به "كالاب"، اقترب منه أكثر بدلا من أن يبتعد، ثم مال بجسده يسارًا وتفادى ضربته، و"زوما" يرفع سيفه في بطء ليعيد الكرة، اقترب منه "كالاب" أكثر ثم قفز في خفة وأغمد سيف الجلال في قلبه تماما، كانت الضربة من القوة حتى أن السيف اخترق قلب "زوما" وغاص فيه حتى نصله، فصرخ "عرعر" بأعلى صوته وهو يقول:

- لاااااا، إلهي.

وبينما كان جسد "زوما" يترنح يمينا ويسارا بدأ فجأة يتحول إلى حجارة والحجارة تستحيل ترابا بدورها وهي تتطاير في الهواء،

ثم دوت صرخة عالية من داخل جسد "زوما" وخرجت منه نار، ثم انهار الجسد كله وتحول إلى تراب يختلط بالرماد.

لم يبدِ أحدٌ من الحراس اعتراضًا و"لابا" تزيح أيديهم بعيدا عنها، لقد كانوا يقفون في ذهول شأنهم شأن الجميع هناك، ثم جرت ناحية "كالاب" الذي احتضنها في شوق ولهفة، عندما أزاحها "كالاب" في رفق ذهبت على الفور تحتضن أخيها "تيرا".

كان "كالاب" يتطلع إلى الناس وهم يقولون:

- إنه "كالاب" الذي دخل إلى الكهف وعاش بين الآلهة ثم عاد ومعه الحكمة، لقد عاد وهو إله.

استوقفهم بإشارة من يده وهو يقول:

- هناك في جوف الأرض يوجد عالم آخر تسكنه مخلوقات من الجن، و"زوما" هذا الذي سمي نفسه (زولا) هو ابن من أبناء الشيطان الأكبر، هم ليسوا آلهة بل مجرد مخلوقات مثلنا، نحن جميعا مخلوقات، إننا بجهلنا وأهوائنا مَن صنعنا هؤلاء الآلهة الزائفة، صنعناها على هوانا، صنعناها كيف نشاء، اخترناها كي تخدمنا مثلما نشاء، وظننا أننا نستطيع أن نأخذ منها ما نريد ما دمنا نعطيها ما تريد، ظننا أنها آلهة تطلب قرابين، لكن الحقيقة أنها كلها زيف وأن من كان يجعلنا نقتل أبناءنا هم الشياطين وسحرهم، يعينهم عليه بعض الإنس والجان.

كان يتكلم في حماسة حين توقف فجأة ونظر إلى "تيرا" وهو يقول:

- ما دليلك على أن من تدعونه أنتم إلها هو نفسه الإله الحق؟

نظر إليه وهو يبتسم ابتسامة صفاء قبل أن يقول في هدوء:

- إنه الاختيار...

صمت "تيرا" لحظات قبل أن يضيف:

- أنت تختار ما دام هناك اختيارات، وكلما كانت الاختيارات متقاربة، كلما صعب عليك الاختيار، وهكذا كلما تزداد صعودا وعمقا كلما ازدادت صعوبة الاختيار وقلت الخيارات، حتى تقترب من أعظم درجة في كلِّ شيء.

صمت "تيرا" مرة أخرى وهو ينظر إلى السماء كأنه يطلب منها أن تعينه على الشرح وهو يعود ويقول:

- خذ القوة على سبيل المثال، أنت تختار بين قوي وقوي آخر، لكن عندما تصل إلى القوة العظمى، تلك القوة التي ليس بعدها قوة ستجد هناك قويًّا واحدًا ليس معه أنداد لتختار من بينهم، وكذلك في جميع الصفات، ستجد الأعظم هناك حيث لا توجد معه أنداد أو خيارات، عندها ستجد أنك تختاره هو لأن الخيارات قد تحولت إلى خيار واحد.

ابتسم "تيرا" وهو ينظر إلى "كالاب" الذي بادله بالابتسام وقد استيقن أنه أعطاه ما أراد، فصار صوته أكثر هدوءًا عن ذي قبل وهو ينظر إلى الناس ويقول:

- سيصبح اختيارك هو هذا الأعظم في كلِّ شيء الذي ليس معه ند يعادل عظمته، وهذا الأعظم هو نفسه الإله الواحد الذي اجتمعت له مطلق الصفات بلا ندٍّ ولا نظير لتختار من بينهم معه.

نظر إليه "كالاب" والابتسامة ما زالت تزين وجهه وهو يقول:

- صدقت فيما قلت، ولكن كيف عرفت بأمر "زوما"؟

- أخبرني به النبي الذي اتبعته منذ سنين، وهو نفسه من شرح لي حقيقة الاختيار.

نظر "كالاب" إلى الجموع من حوله وهو يقول في حماس:

- إنه "تيرا"، وهو صادق فيما يقول، وأشهدكم أني أؤمن بالإله الذي يدعو إليه.

أشار "كالاب" بيده إلى "تيرا" الذي تقدم منه قبل أن يقف بجواره وهو ينظر إلى الناس ويقول:

- لقد صنع الإنسان آلهة عدة وأعطاها الصفات بحسب الحاجة أو الهوى والرغبات، وعاملها بمبدأ المبادلة أن أعطِني ما أريد فأعطيك ما تريدين، فكان هناك آلهة القوة والحرب ومعها آلهة السلام

والبناء، وآلهة الماء والرخاء وهكذا، ولكن ماذا لو كان ما يبحث عنه الإنسان هو في الحقيقة صفة من صفات الإله الخالق الواحد الحق، الذي يجمع كلَّ هذه الصفات؟ سيكون هناك إله واحد بحق عظيم في صفاته جميعا.

ثم صمت "تيرا" عن الكلام، والتقط "كالاب" طرف الحديث وهو يهتف في حماس:

- لا أصنام بعد اليوم، لا قرابين أو كهنة وآلهة، بل هو إله واحد عظيم، رحمن رحيم.

وفجأة لوح "كالاب" بسيف الجلال في الهواء قبل أن يطوح به عاليًا في السماء، والغريب أن السيف قد حلق عاليا قبل أن يهبط هناك، أمام كهف قدس الأقداس تماما، كأنه يعلن انتهاء زمن كهف قدس الأقداس وغلقه إلى الأبد.

*****

وقف "كالاب" ينظر إلى البئر وهو يبتسم ويقول:

- أنت أيها البئر، ما بدأ معك كلُّ شيء، بدايتك كانت نوع من الرحمة وإن لم نعرف هذا في وقته، وما حولك الآن هو كلُّ الرحمة، أنت بئر الرحمة!

هم أن يقول شيئًا آخر عندما بدأ المشهد يتموج ويتغير، وفي سرعة بالغة أخذ ينتقل في الزمان والمشهد يتغير بسرعة عالية، ثم

ثبت المشهد أخيرا حين وصل إلى ذلك الكاتب الذي ما زال يجلس أمام مكتبه، ذلك الكاتب الذي كان في هذه اللحظة شبه غائب عن الوعي، وهو ما زال يضع رأسه فوق سطح مكتبه.

عاد وعيه واستيقظ، ثم نظر في شرود إلى شاشة الكمبيوتر أمامه وقد انطفأت فضغط على لوحة الأزرار وهو يغمغم في سعادة ويقول:

- لقد فهمت الأمر الآن...

* * * *

الختام

شرع الكاتب يكتب مقاله الأسبوعي

((لو سألنا الملائكة - المخلوقات النورانية التي أصبح طاعتها لله هو علة وجودها وكمال ذاتها- من هو الله، فهل تستطيع أن تعطينا إجابة كاملة أو حتى إجابة تقترب من الكمال؟ أم أن كلَّ مَلَك منهم سيعطي إجابته من باب تعلقه بصفة أو باسم من صفات الله وأسمائه. إن منهم من يحيا في نعيم الشعور بقدسية الله وطاعته وخشيته، ومنهم من نظر إلى النور وهام، ومنهم من تعلق بتسبيح الله وما زال، ومع ذلك كله لا تزال معرفتهم لله محدودة، مقصورة على باب تعلقهم وحبهم وخوفهم وخشيتهم وتقديسهم لله.

وهنا نسأل ذلك السؤال، هل اختارت الملائكة عبادة الله؟ هل اختارت طاعته وحبه؟ وهل في هذه الحالة تصلح شهادتهم بأحقية الله بأن يكون الإله الواحد الأحد المستحق وحده للعبادة والطاعة بذاته؟ أم ستكون شهادة غير كاملة ومن زاوية واحدة، وسيجيبون من وجهة معينة كلًّا حسب طبيعته؟

فمنهم من سيتكلم عن القدسية والجلال أو القدرة والجمال، ومنهم سيجيب عن العطاء والمنه، أو القوة، وهكذا.

حين أجابت السماوات والأرض عن أمر الله وقالوا: أتينا طائعين أي سلمنا أمرنا كله إليك يا الله، لم يختاروا التسخير كما يظن الكثيرون؛ لأن التسخير في حد ذاته ضد مبدأ الاختيار، لكنهم اختاروا التسليم لأمر الله، اختاروا ألا يختاروا، اختاروا أن يكونوا عبيدا لله يوجههم كيف يشاء فأصبحوا جزءًا من عطائه وأسباب رحمته أو عقابه.

وفي المقابل، أعطاهم الله لذة العيش في دوام ذكره وتسبيحه وحمده، أعطاهم عدم الشعور بأي شيء آخر سوى رضاه سبحانه، أعطاهم ديمومة الرضا بأن يكونوا ملك يمينه.

ولكن يبقى السؤال الأهم من هو الله حقا من وجهة نظر المخلوقات؟ هل يكفي الشعور حتى ولو كان السعادة الأبدية من المخلوقات التي اختارت التسليم لأمر الله، هل يكفي ذلك لمعرفة الله؟ هم جميعا قد اختاروا أن يكونوا عبيدًا لله وأسقطوا عن أنفسهم حرية التفكير والاختيار والفعل فأصبحوا في أسباب وجودهم يشبهون الملائكة وإن سقط عنهم استمرار سماع الأمر الإلهي، ومن ثم إسراعهم بتنفيذه طاعة لله، فهم حين قالوا أتينا طائعين قد أسقطوا عن أنفسهم تعدد الأفعال بل أصبح لكل مخلوق منهم فطرته التي يستخدمها الله كيف يشاء دون الحاجة إلى سؤاله.

فقطرة المطر تهبط من السماء لتسقي الأرض والحرث، لا تملك من أمرها أن تذهب للمؤمن دون الكافر، ولا الكريم دون البخيل،

فهي تعيش في جنتها لا تنظر خارج حدود تنفيذ أمر الله، بداية جنتها ونعيمها طاعة الله وحياتها في هذه الجنة هي تصرف الله فيها.

إذا لو سألت جميع المخلوقات السابقة عن الله، لن يكون في مقدورهم أن يجيبوا إجابات كاملة أو قريبة حتى من الكمال! لا، لن يستطيعوا، وهنا كان لابد من وجود ذلك المخلوق المخير العاقل الذي يملؤه الاختلاف، لابد من وجود الإنسان الذي احتوى بداخله كلَّ المخلوقات، ذلك الإنسان سيجيب إجابات أوسع مجالا وأكثر عمقا، ومن ثم كان لابد من وجود تلك الرحلة الإنسانية الكاملة منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة، رحلة طويلة يحاول فيها الإجابة عن كلِّ الأسئلة التي ربما تتبادر في عقل أي مخلوق عن الله؛ لماذا لا يكون الله هكذا؟ ولماذا لا يفعل ذلك؟ رحلة كان فيها اختيار الآلهة على الأهواء، ثم ثبوت خطأ الاختيار بالتجربة والبرهان، رحلة فهم وتعلُّم وصعود، بحيث تكون الرحلة الإنسانية كلها عبر التاريخ هي رحلة تجميع لصفات الله الواحد الحق، رحلة تتكامل فيها المعرفة به سبحانه لنتعرف عليه، رحلة وصول بالفهم إلى التسليم لله بأنه الله، التسليم له سبحانه من مخلوق واحد بفهم وإدراك كما فعل الكون كله بمخلوقاته جميعاً كل من وجهته من قبل، رحلة تسامٍ على الأهواء والشهوات والصفات، رحلة اختيار لله عن فهم وعلم واقتناع، والتي يكون جزاؤها هو ديمومة النعيم في جنة معرفة الله.

لقد اختلف البشر في فهمهم لمعاني الألوهية، كما اختلفوا في نظرتهم إلى الإله وفي طلباتهم منه، فما كان من البشر إلا أن اختاروهم بأهوائهم، هذا أراد أن يكون الإله محاربًا وناصرا، وهذا أراده حاميا وكافيا، وهذا أراده مغنيا ورازقًا، وهذا أراده منتقما وعادلا.

لعل كلَّ إنسان طبع حاجته ونظرته على إلهه فتعددت من وجهة نظرهم الآلهة، لعل كلَّ إنسان قد اختار إلهه من الاختيارات المتاحة أمامه بحسب حاجته، ثم اشتعل الصراع بين هؤلاء الآلهة فهذا إله الحرب يهزمه إله الحكمة.

وقف الإنسان بعدها حائرا يتساءل كيف يمكن أن يحدث هذا؟ ثم إله الحكمة يسقط أمام الأقدار، وبدأت تظهر فكرة كبير الآلهة الذي يتصف بصفات عديدة، نعم ظهر جليا للإنسان حتمية وجود كبير للآلهة متصف بجميع صفاتهم ليحكم هؤلاء الآلهة جميعا، ثم بدأ الإنسان يتحدث عن الإله الواحد الذي يتحكم في كلِّ شيء، هذا رآه في الشمس وهذا في القمر، وهذا رآه أرواح السابقين وهكذا، وخلف كلِّ إله منهم ومن البداية نجد الشيطان يستميل الإنسان بعيدًا عن الله ليستطيع السيطرة عليه واستعباده.

في الحقيقة هم لم يكونوا يعبدون الأصنام ولا الشمس والقمر بل كانوا يعبدون الشيطان في صوره الكثيرة المتعددة، وفي المقابل

ومن البداية، كان هناك الأنبياء والرسل، يعلمون الناس ويرشدونهم إلى الله وعبادته دون سواه)).

كان ذلك الكاتب يبتسم وهو يضغط على زر الإرسال ليرسل المقال بالبريد إلى الجريدة، كما كان يحدث نفسه بكلمات لم يكتبها، كان يقول:

- الله متعال على الزمان والمكان، فكل ما جرى وما يجري وما سوف يجري هو في علمه قد جرى بالفعل، بعلمه قد جرى، وبحكمته ما زال يجري، وبرحمته بنا سوف يجري، ولعلنا بوجودنا في علم الله قد أعطينا درجة وجود، وتلك الدرجة من الوجود هي ما نحيا بها في الحياة الدنيا، ولعل كمال الوجود والخلق سيكون في الآخرة كما قال رب العزة إن الآخرة هي الحياة، لعلنا ما زلنا موجودين في علم الله ولما نخلق بعد، لكن هذا سؤال آخر ومقال آخر.

تمت بحمد الله

طارق حنفي